نوادر الكتب المطبوعة

عنوان الكتاب

تفصيل النشأتين و تحصيل السعادتين

المؤلف

الحسين بن محمد بن المفضل (الراغب الأصفهاني)

دار النشر / تاريخ النشر

طبع في بيروت - سنة ١٣١٩

شبكة الألوكة www.alukah.net

al-Rāghib al-Iṣfahānī

كتاب

تفصيل النشأتين

Tafṣīl al-nash'atayn

و

تحصيل السعادتين

للإمام ابي القاسم الحسين بن محمد بن المفضَّل
الراغب الاصفهاني المتوفى في رأس المائة
الخامسة قدس الله روحه آمين

منقولة عن نسخة خطية قدسية ومقابلة على نسخة أُخرى
كتبها لنفسه الشيخ رضي الدين بن ابي بكر الحلبي
سنة ٩٦٣ . ومصححة في غاية الدقة والاعتناء
بمناظرة الشيخ طاهر الجزائري

طبع في بيروت سنة ١٣١٩

Digitized by Google

«ترجمة المؤلف»

قال في كشف الظنون : تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين للامام ابي القاسم الحسين بن محمد بن المفضل الراغب الاصفهاني المتوفى في رأس المائة الخامسة مختصرٌ اوله : الحمد لله الذي ارسل بالنبوّة عبده رتبه على ثلاثة وثلاثين بابًا وفصل فيه النشأة الاولى والنشأة الأُخرى

وقال عند ذكر كتاب مفردات الفاظ القرآن العزيز له : قال السيوطي في طبقاته : كان في اوائل المائة الخامسة . ونقل عن خط الزركشي ما نصه: ذكر الامام فخر الدين الرازي في (تأسيس التقديس في الاصول) ان الراغب من ائمة السنة وقرنه بالغزالي . ه

وقال عند (ذكر الذريعة الى مكارم الشريعة) ـ الذي هو كالمقدمة لكتابنا هذا على ما يظهر من اسلوب الكتابين : قيل ان الامام حجة الاسلام الغزالي كان يستصحب كتاب الذريعة دائمًا ويستحسنه لنفاسته .

وقال عند ذكر تفسيره : هو تفسير معتبر في مجلد اورد في اوله مقدمات نافعة في التفسير وطرزه (اسلوبه) انه اورد جملاً من الآيات ثم فسرها تفسيرًا مشبعًا وهو احد مآخذ انوار التنزيل للبيضاوي . غير ان بعضهم جعل مفردات الراغب احد مآخذ القاضي البيضاوي في تفسيره ولا تنافي بين القولين . وبالجملة فالامام الراغب ممن اجمعت على فضله العلماء الاعلام على اختلاف مشاربهم وتنوع مذاهبهم تغمده الله بالرضوان واسكنه فراديس الجنان ووفق ارباب الهمم العلية لنشر مؤلفاته والاستضاءة بنور مشكاته

Digitized by Google

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARIES
32101 013697352

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي ارسل بالنبوَّة عبده . وعلَّمنا على لسانه حمده ورغَّبنا فيما عنده . ونسأَله ان يُصلي على نبيه محمد وعلى آله وان يهدينا بأَوضح دليل . الى انجح سبيل . وبأَقوى حجة . الى اوضح محجة

قال الشيخ ابو القاسم الحسين بن محمد بن المفضَّل الراغب : هذه رسالة في تفصيل النشأَتين وتحصيل السعادتين

اما النشأَتان فاحداهما المذكورة في قوله تعالى: «ولقد علمتم النشأَة الاولى فلولا تذكَّرون» . والثانية المذكورة في قوله تعالى : «ثم ينشىء النشأَة الآخرة ان الله على كل شيءٍ قدير»

واما السعادتان فاحداهما المذكورة في قوله تعالى : «اذكروا نعمتيَ التي أَنعمتُ عليكم» . والثانية المذكورة في قوله تعالى: «واما الذين سعدوا ففي الجنة»

وقد عملتُ ذلك للاستاذ الكريم ايده الله لما رأَيته معنياً

(RECAP)
2274
.33
3283
880843
Digitized by Google
Mod. Arabic Lib. - Akhlaq - 1-15-40

باكتساب الانسانية الموصلة الى السعادتين اعانه الله على استفادتها حتى يصير حاوياً لنوعها ومحامياً على معناها ومراعياً لخصائصها فقد كاد او قد كان قولنا الانسان لفظاً مطلقاً على معنى غير موجود واسماً لحيوان غير معهود كعنقاء مغرب ونحو ذلك من الاسماء التي لامعاني لها كما قال تعالى في صفة الاصنام المسماة آلهة: «إِنْ هي الاَّ اسماءٌ سميتموها انتم وآباؤُكم ما انزل الله بها من سلطان» . وقال جلَّ جلاله: «ماتعبدون من دونه الاَّ اسماءً سميتموها» فجعلها اسماءً بلا مسمى ولم أَعنِ بالانسان كلَّ حيوان منتصب القامة عريض الظفر املس البشرة ضاحك الوجه ممن ينطقون ولكن عن الهوى . ويتعلمون ولكن ما يضرُّهم ولا ينفعهم . ويعلمون ولكن ظاهرًا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون . ويكتبون الكتاب بأَيديهم ولكن يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً . ويجادلون ولكن بالباطل ليدحضوا به الحق . ويؤمنون ولكن بالجبت والطاغوت . ويعبدون ولكن من دون الله ما يضرُّهم ولا ينفعهم . ويبيّتون ولكن ما لا يرضى من القول . ويأتون الصلاة ولكن كسالى ولا يذكرون الله الا قليلاً . ويصلّون ولكنهم من المصلّين الذين هم عن صلاتهم ساهون . ويذكرون ولكن اذا ذُكّروا لا يذكرون . ويدعون

ولكن مع الله الهاً آخر . وينفقون ولكن لا ينفقون الا وهم كارهون ويحكمون ولكن حكم الجاهلية يبغون . ويخلقون ولكن يخلقون إفكا . فهؤلاء وان كانوا بالصورة المحسوسة ناساً فهم بالصورة المعقولة لا ناس ولا نسناس كما قال امير المؤمنين علي بن ابي طالب كرَّم الله وجهه : يا اشباه الرجال ولا رجال بل هم من الإنس المذكور في قوله تعالى: «شياطينَ الإِنس والجن يوحي بعضهم الى بعض زُخرُفَ القول غُرورًا» . وما ارى البحتريَّ اذا اعتبر جُلَّ الناس بالخُلق لا الخَلق مبعدًا في قوله :

لم يبق من جلّ هذا الناس باقيةٌ
ينالها الوهمُ الاَّ هذه الصورُ

ولا مَنْ يقول :

فجلُّهمُ اذا فكَّرتَ فيهم حميرٌ او كلابٌ او ذئاب

ولا تحسبنَّ هذه الابيات اقوالاً شعرية واطلاقات مجازية فان الله تعالى يقول : «أَم تحسبُ أَن اكثرَهم يسمعون او يعقلون ان هم الاَّ كالأَنعام بل هم اضلُّ سبيلا» . وقد انبأتُ في هذه الرسالة عن جملة الموجودات ومكان الانسان منها ومبدأها ومنشأها ومنتهاها وماجُعل له من السعادة في الدارين باكتساب الانسانية وكيفية التطرق اليها وابتدأتُ بالتنبيه على وجوب معرفة

Digitized by Google

الانسان ذاته فمن علم أن شيئاً ما هو مما يجب ان يُعلَم فانه وان لم يعلمه فقد يحصل له بذلك علم . فمن العلم ان تعلم أنك لا تعلم وعلم الانسان بجهله احد العلمين * قال ابن عباس رضي الله عنه : من لم يجد مسَّ نقص الجهل في عقله وذلَّ المعصية في قلبه ولم يستبن الخلَّة في لسانه عند كلال حدّه عن حدّ خصمه فليس ممن ينزع عن دنيَّة ولا يرغب عن حال معجَزَة ولا يكترث لفصل ما بين حجة وشبهة * وبقدر معرفة منفعة الشيء يحرص الانسان على طلبه ويصبر على تحمل المشقة في تحصيله ولذلك قال الله تعالى في صفة مَن جهل نفع مطلوبه : (وكيف تصبر على مالم تحط به خُبْرا) . فاعرف ايها الفاضل فضيلة الانسانية وما أعدَّ من الفلاح لمن تزكَّى كما قال تعالى : (قد أفلح من زكَّاها) فإنها

هي المكارم لا قَعْبان[1] من لبَن شيبا بماءٍ فعادا بعدُ ابوالا
ولا تكادُنَّك[2] بعد الشقة وفعل من يروقك طاقه ورواقه

فان جاوزت كسوته اليه فليس وراءَ عبَّادانَ[3] قرية بل لا تراه الا عبداً لحجرٍ او مدرٍ او بهيمةٍ او ظعينةٍ كمن ذمه النبي صلى الله

(١) مثنى قعب وهو القدح الضخم (٢) تكادَّني الامر شقَّ علي كتكاءدني (٣) عبادانَ جزيرة احاط بها شعبتا دجلة ساكبتين في بحر فارس

تعالى عليه وسلم بقوله : تعسَ عبدُ الدرهم تعس عبد الدينار تعس وانتكس واذا شيك فلا انتقش . فأنك في عنفوان شبابك ولدونة اغصانك *

واعلم انه ليس يحسن بذى همة قد احسن الله اليه في خَلقه وَخُلقه وقيَّض له مَنْ ربَّاه فاحسن تربيته وازاح في معاونته بعد بلوغه علَّته ان يرضى بأَن يكون حيواناً وقد امكنه ان يصير انساناً او بأَن يكون انساناً وقد امكنه ان يصير ملَكاً او بان يكون ملكا وقد امكنه ان يصير ملِكاً في مقعد صدق عند مليك مقتدر فتقوم الملائكة بخدمته كما قال الله تعالى : « والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلامٌ عليكم بما صبرتم فنعم عقبي الدار . وفقنا الله لذلك ولا جعلنا من الكسالى الموصوفين بقوله تعالى : (لوكان عرَضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتَّبعوك ولكن بعُدَتْ عليهم الشقة) جعلنا الله واياك من المؤمنين الموصوفين بقوله تعالى : (هو الذي انزل السكينة في قلوب المؤمنين) وبقوله : (اولئك كتب في قلوبهم الايمان وايدهم بروح منه) حتى لاتغترَّ بما هو كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى اذا جاءه لم يجده شيئاً

Digitized by Google

تراجم ابواب الكتاب

وهي ثلاثة وثلاثون بابًا

« ١ » ا في معرفة الانسان نفسه
« ٢ » ب في اجناس الموجودات وموضع الانسان منها
« ٣ » ج في العناصر التي منها اوجد الانسان
« ٤ » د في قوى الاشياء التي جمعت في الانسان
« ٥ » ه في تكوّن الانسان شيئًا فشيئًا حتي يصير انسانًا كاملاً
« ٦ » و في ظهور الانسان في شعار الموجودات وتخصصه بقوة شيء فشيء منها
« ٧ » ز في ماهية الانسان
« ٨ » ح في كون الانسان مستصلحًا للدارين
« ٩ » ط في تمثيل ذات الانسان وتصويره
«١٠» ي في كون الانسان هو المقصود من العالم وايجاد ماعداه لاجله
«١١» يا في الغرض الذي من اجله اوجد الانسان ومنازلهم
«١٢» يب في تفاوت الناس واختلافهم
«١٣» يج في سبب تفاوت الناس
«١٤» يد في بيان الشجرة النبوية وفضلها علي جوهر سائر البرية
«١٥» يه في هداية الاشياء الى مصالحها
«١٦» يو في سعادة الانسان ونزوعه اليها

Digitized by Google

«١٧» يز في حال الانسان في دنياه وما يحتاج ان يتزود منها
«١٨» يح في تظاهر العقل والشرع وافتقار احدهما الى الاخر
«١٩» يط في فضيلة الشرع
«٢٠» ك في بيان ان من لم يتخصص بالشرع وعبادة الرب فليس بانسان
«٢١» كا في ما يتعلق به الشرع من الافعال
«٢٢» كب في تحقيق العبادة
«٢٣» كج في انواع العبادة من العلم والعمل
«٢٤» كد في كون الغرض من العبادة تطهير النفس واجتلاب صحتها
«٢٥» كه في بيان الامراض والانجاس التي لا يمكن ازالتها الا بالشرع
«٢٦» كو في القوى التي تجب ازالة امراضها وانجاسها والمعاني التي تحصل بذلك
«٢٧» كز في كون الانسان مفطوراً على اصلاح النفس
«٢٨» كح في سبب رذيلة الانسان وتاخره عن الفضيلة
«٢٩» كط في احوال الناس ومنازلهم في تعاطي الافعال المحمودة والمذمومة وطرقها
«٣٠» ل في ارتداد الانسان من طريق الخير والشر
«٣١» لا في قدر ما في الوسع من اكتساب السعادة
«٣٢» لب في اثبات المعاد وفضيلة الموت وما يحصل له بعده
«٣٣» لج في فضيله الانسان اذا شرف على الملاك

Digitized by Google

الباب الاول

في معرفة الانسان نفسه

قالت الحكماء مرةً : اولُ ما يلزم الانسانَ معرفتُه نفسه وقالوا مرةً : اول مايلزمه معرفة الله تعالى · وليس بين هذين القولين منافاة فانهم عنوا بالأَول حيث قالوا معرفة النفس الاولَ من حيث الترتيب الصناعي وعنوا (بالأَول ايضاً) حيث قالوا معرفة الله الأَولَ من حيث الشرف والفضل فان معرفة الله هي افضل المعارف · وفي معرفة النفس اطلاع على امور كثيرة :

احدها : انه بواسطتها يتوصل الانسان الي معرفة غيرها ومن جهلها جهل كل ماعداها

والثاني : ان نفس الانسان مجمع الموجودات كما نبين بعدُ فمن عرفها فقد عرف الموجودات ولذلك قال الله تعالى : (أَولم يتفكَّروا في انفسهم ماخلق الله السموات والأَرضَ ومابينهما الاَّ بأُلحق وأَجلٍ مسمى وإِن كثيرًا من الناس بلقاء ربهم لكافرون) تنبيهاً على انهم لو تدبروا انفسهم وعرفوها عرفوا بمعرفتها حقائق الموجودات فانيها وباقيها وعرفوا بها حقيقة السموات والارضين

ولما انكروا البعث الذي هو لقاء ربهم قال الله : (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم حتى يتبيَّنَ لهم أَنه الحقُّ ٠) وقال : (وفي الارض آياتٌ للموقنين وفي انفسكم أَفلا تبصرون)

والثالث: ان من عرَف نفسه عرَف العالَم ومن عرفه صار في حكم المشاهد لله تعالى وهو يخلق السموات والارض ولم يكن كالكفرة الجهلة الذين اثكلهم (١) هذه المنزلة فقال فيهم: (ماشهدتهم خَلْق السموات والارض ولا خَلْق انفسهم وما كنتُ متخذَ المضلّين عضداً)

والرابع: انه يعرف بمعرفة روحه العالمَ الروحاني وبقاءه وبمعرفة جسده العالم الجسداني وفناءه فيعرف خِسَّة الفانيات وشرف الباقيات الصالحات

والخامس : ان من عرف نفسه عرف اعداءه الكامنة فيها المشار اليها بقوله صلى الله عليه وسلم : اعدى عدوّك نفسُك التي بين جنبيك فيستعيذ منها ٠ كما قال عليه الصلاة والسلام : اللهم الهمني رشدي وأَعذني من شرّ نفسي ٠ وقال : لا تكلني الى نفسي طرفة عين فأَهلك ٠ ومن عرف اعداءه الكامنة ومكامنها وكيفية انبعاثها احسن ان يحترز منها وان يجاهدها فيستحق ماوعد

(١) الثكلي المرأَة التي فقدت ولدها واثكلها الله جعلها ثكلى

Digitized by Google

الله به المجاهدين في سبيله ومن لم يعرفها فجدير ان يتراءى له عدوه الذي هو الهوى بصورة العقل فيتصوَّر له الباطل بصورة الحق وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : الهوى شيطان بل قال هو اله يُعبَد من دون الله . وقد رُوي انه قال صلى الله عليه وسلم : ماعُبد في الارض الهٌ ابغضُ الى الله من الهوى ثم تلا : (أَفرأَيتَ مَنْ اتخذَ الههُ هواهُ)

والسادس : ان من عرف نفسه عرف ان يسوسها ومن أَحسن ان يسوس نفسه احسن ان يسوس العالم فيصير من خلفاء الله المذكورين في قوله تعالى : (ويستخلفكم في الارض .) ومن الملوك المذكورين في قوله تعالى : (وجعلكم ملوكاً)

والسابع : ان من عرفها لم يجد عيباً في احد الاَّ رآهُ موجوداً في ذاته إِما ظاهرًا منبعثاً اوكامناً فيه ككمون النار في الحجر فلا يكون همَّازًا ولمَّازًا وعيَّابًا فان كل عيب تراءى له من غيره وجده في نفسه ومن رأَى عيب نفسه فجدير ان يكون ممن دعا له النبيُّ صلى الله عليه وسلم بقوله : رحم الله امرءًا شغله عيبه عن عيوب غيره * ومعرفة عيب النفس صعب من حيث ان كل انسان يحب نفسه وحبه لها يعميه عن معايبها كما قال صلى الله عليه وسلم : حبك الشيءَ يُعمي ويُصم * والأَعمى والأَصم عن عيب الشيء

قد يعجب به . ولا ضرر اعظم من إعجاب المرء بنفسه وقد قال بعض الحكماء : الكاذب في نهاية البعد عن الحق والمرائي اسوأ حالاً من الكاذب لأن الكاذب يكذب بقوله فقط والمرائي يكذب بقوله وفعله . قال : واسوأ حالاً منهما المعجب بنفسه لأن الكاذب والمرائي قد ينتفع بهما والمعجب بنفسه لا نفع فيه بوجهٍ ولأنهما قد ينفع وينجع وعظك فيهما لعلمهما بنفسهما . والمعجب بنفسه لجهله يظنك في وعظك اياه مُلْغيا

والثامن: ان من عرف نفسه فقد عرف الله تعالى فقد رُوي انه ما انزل الله من كتاب الا وفيه : اعرف نفسك يا انسان تعرف ربك وهذا معنى قوله تعالى : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم الآية » وفي هذا الخبر ثلاث تأويلات : احدها ان بمعرفة النفس يتوصل الى معرفة الله عز وجل كقولك اعرف العربية تعرف الفقه اي بمعرفة العربية يتوصل الى معرفة الفقه وان كان بينهما وسائط . والثاني انه اذا حصّل معرفة النفس حصّل بحصولها معرفة الله بلا فاصل كقولك بطلوع الشمس يحصل الضوء فيكون الضوء مقترناً بطلوعها غير متأخر عنها بزمان . والثالث ان معرفة الله تعالى ليست تثبت الا ان تُعرَف النفس لانك اذا عرفتها على الحقيقة فقد عرفت العالم فاذا عرفت العالم عرفت انه

Digitized by Google

محدَث وان لا بد له من محدِث لا يشبه المحدَث بوجه وذلك هو غاية معرفة الله تعالى . قالوا وعلى هذا دل معنى قول امير المؤمنين كرّم الله وجهه : ان العقل لاقامة رسم العبودية لا لإدراك الربوبية ثم انشأ يقول :

كيفية النفس ليس المرء يعرفها فكيف كيفية الجبار في القدم
هو الذي أنشأ الأشياء مبتدئاً فكيف يدركه مستحدَث النسم

وقال ايضاً :

العجز عن درك الادراك ادراك والبحث عن سر ذات السر إشراك
وفي سرائر هِمَّات الورى همم عن ذا الذي عجزت جنٌّ واملاك
يهدي اليه الذي منه اليه هدى مستدركاً ووليُّ الله مدراك

وقال ابو بكر الصديق رضي الله عنه : يا من غاية معرفته القصور عن معرفته . وقال الله تعالى : « نسوا الله فأنساهم أنفسهم » تنبيهاً على انهم لو عرفوا أنفسهم لعرفوا الله فلما جهلوه دلّ جهلهم اياه على جهلهم اياها

الباب الثاني

في ذكر اجناس الموجودات وموضع الانسان منها

اعلم ان الله تعالى هو الواجب الوجود الذي لاسبب لوجوده بل هو سبب كل موجود . وكلّ موجود فمنه وبه تعالى وجوده . والموجودات ضربان : المعقولات العلوية والمحسوسات السفلية وايجاده تعالى للمعقولات العلوية قبل ايجاده للمحسوسات السفلية كما رُوي انه اول ماخلق الله تعالى القلم ثم اللوح وقال اجر بما هو كائن الى يوم القيامة . وروي انه اول ما خلق الله العقل فقال له أَقبل فأَقبل ثم قال له أَدبر فأَدبر فقال بعزتي وجلالي ماخلقتُ خَلقاً اكرمَ عليّ منك بك آخذ وبك أُعطي ولك الثواب وعليك العقاب * وليس المراد بالعقل ههنا العقول البشرية بل الاشارة به الى جوهر شريف عنه تنبعث العقول البشرية . وقال قوم: العقل ههنا عبارة عن القلم المذكور في الخبر الآخر والله اعلم

ثم اوجد الله تعالى الروحانيات الذين لايستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون وايجاد هذه الاشياء على سبيل الابداع . والابداع هو ايجاد الشيء لاعن شيء موجود من قبل . ثم خلق

الاركان الاربعة والجمادات والناميات والحيوانات وختم بالصورة الانسانية كما دل عليه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : خلق الله تعالى يومَ الاحد كذا ويوم الاثنين كذا الى ان قال وخلق الانسان يوم الجمعة آخر النهار . والخلق في اكثر الاحوال يقال في ايجاد الشيء من الشيء قبله كخلق الانسان من التراب ويقتضي تركيباً ولذلك قال الله تعالى : (ومن كل شيء خَلقنا زوجين لعلكم تذكَّرون) . والى الاشياء المركَّبة اشار بقوله تعالى : (أَولم يروا الى الارض كم انبتنا فيها من كل زوج كريم) . واعلم ان كل شيء من المبدَعات فتامٌّ لا نقص فيه ولو كان فيه نقص لدل ذلك على نقصان مبدعه وصانعه فأَما المخلوق الذي هو مركب من شيء فقد يحتمل ان يكون فيه نقص ويكون نقصه عارضاً من جهة ما تركب منه لا من جهة مركِّبه وفاعله فلهذا صارت المبدعات من الاشياء العلوية معرّاة عن اعتراض الفساد فيها حالا فحالا بل تبقى على حالتها الى ان يشاءَ الله تعالى ان يرفع العالم

والانسان انسانان : احدهما آدم الذي هو ابو البشر ويجري هو من سائر الناس مجرى البَذر الذي منه انشيء غيره والباري تعالى قد تولى بنفسه ايجاده وتربيته وتعليمه كما نبَّه عليه بقوله تعالى : (مامنعك ان تسجد لما خلقتُ بيديَّ) . وقوله تعالى : (وعلَّم آدم

الاسماء كلها)والثاني بنوه وموجدهم ايضاً الباري تعالى ولكن جعل انشاءهم وتربيتهم وتعليمهم بوسائط جسمانية وروحانية فالجسماني كالأبوين والروحاني كالملائكة المدبّرات والمقسّمات الذين يتولون انشاءه وتربيته كما روي في الخبر: الولد يكون اربعين يوماً نطفةً ثم يصير علقة ثم يصير مضغة ثم يبعثُ الله ملكاً فينفخ فيه الروح الى غير ذلك من الاخبار. ولكون الابوين سبباً في وجود الولد عظَّم الله تعالى حقهما والزم بعد شكره شكرهما فقال: (اشكر لي ولوالديك). ويسمى الولد ابناً وهو مشتق من بنيتُ البنيــة تنبيهاً على انه جار للاب مجرى البناء للباني

الباب الثالث

في ذكر العناصر التي منها أُوجد الانسان

ذكر الله تعالى العناصر التي خلق منها آدم عليه السلام ونبَّه على انه جعله انساناً في سبع درجات. واشار الى ذلك في مواضع مختلفة حسب ما اقتضته الحكمة فقال في موضعٍ خلقه من تراب اشارةً الى المبدأ الاول. وفي آخرَ من طين اشارة الى الجمع بين التراب والماء. وفي آخر من حماءٍ مسنون اشارةً الى الطين المتغير بالهواء ادنى تغير. وفي آخرَ من طين لازب اشارةً الى الطين

Digitized by Google

المستقرّ على حالة من الاعتدال يصلح لقبول الصورة . وفي آخرَ من صلصال من حمإٍ مسنون اشارةً الى يُبسه وسماع صلصلة منه وفي آخر من صلصال كالفخار . وهو الذي قد أُصلح بأَثر من النار فصار كالخزف وبهذه القوة النارية حصل في الانسان اثر من الشيطنة وعلى هذا المعنى دلّ بقوله :(خلق الانسان من صلصال كالفخَّار وخلق الجانَّ من مارج من نار) . فنبه على ان الانسان فيه من القوة الشيطانية بقدر ما في الفخار من اثر النار وان الشيطان ذاته من المارج الذي لا استقرار له . ثم نبه الله على تكميل الانسان بنفخ الروح فيه فقال :(اني خالق بشرًا من طين فاذا سوَّيتُه ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين) . فهذه سبع درجات نبه عليها كما ترى . ثم دلَّ على تكميل نفسه بالعلوم والاداب بقوله تعالى: (وعلَّم آدم الاسماءَ كلَّها) ثم ذكر خلق بني آدم وعناصرهم التي اوجدها حالةً بعد حالة فنبه على انه جعلهم اناساً في سبع درجات حسب ما جعل آدم عليه السلام فقال تعالى : (ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علَقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحما ثم انشأْناه خلقاً آخرَ فتبارك الله احسن الخالقين . وقوله تعالى: (ثم انشاناه خلقاً آخرَ)اشار به الى ما جعل

Digitized by Google

له من قوة العقل والفكر والنطق . فان قيل فلمَ قال فكسونا العظام لحماً ولم يقل فخلقنا منه لحماً كما قال في الأَول . قيل اشارة منه تعالى الى لطيفة من صنعه وهو ان النطفة انتهت الى صورة العظم ثم انشأَ الله اللحم إنشاءً آخر لا من النطفة واجراها مجرى الكسوة التي قد يخلعها الانسان ويجدِّدُها ولذلك اذا قطع من الحيوان لحمٌ عاد ولم يكن كالعظم الذي لا يعود بعد قطعه * فان قيل كيف حكم على جميع الناس انه خلقهم من سلالة من طين والمخلوق منها هو آدم دون اولاده . قيل ان ذلك على وجهين : احدهما انه لما خلق آدم من سلالة من طين خلق اولاده الذين منه هم ايضاً منها . والثاني ان الانسان يتكوَّن من النطفة ويتربى بدم الطمث (١) وهما يتكوَّنان من الغذاء والغذاء يتكوَّن من الحيوان والحيوان من النبات والنبات من سلالة من طين فاذاً الانسان على الحقيقة من سلالة من طين وعلى هذا نبَّه الله تعالى بقوله : (إِنا صببنا الماءَ صباًّ ثم شققنا الارض شقاًّ فأَنبتنا فيها حباً وعنباً وقضباً . وقوله : (ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفةً في قرار مكين) وقوله : (خلقكم من تراب ثم من نطفة) . فجعله الله تعالى من تراب على هذا الوجه . وقال :(ومن آياته أَن

---

(١) الطمث الحيض

خلقكم من تراب ثم اذا انتم بشر تنتشرون) وفي آخر: (خلق الانسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين. وعني بالانسان ههنا آدم ولذلك قال: ثم جعل نسله. فاقتصر ههنا على النطفة دون المبدأ الاول الذي هو التراب. وانما ذكر هذه المبادي متفرقة لحكمة اقتضت تخصيص ذكرها في موضعها الذي ذكرها فيه وليس شرح تخصيص ذكر كل واحد من ذلك في موضعه مما يليق بهذا الكتاب

الباب الرابع

في ذكر قوى الاشياء التي جمعت في الانسان

الانسان قد جمع فيه قوى العالم واُوجد بعد وجود الاشياء التي جمعت فيه وعلى هذا نبه الله تعالى بقوله: (الذي احسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الانسان من طين). وقول النبي صلى الله عليه وسلم الذي تقدم ذكره. وقد جمع الله تعالى في الانسان قوى بسائط العالم ومركباته وروحانياته وجسمانياته ومبدعاته ومكوّناته. فالانسان من حيث انه بوساطة العالم حصل ومن اركانه وقواه اوجد هو العالم. ومن حيث انه صغّر شكله وجمع فيه قواه كالمختصر من العالم فان المختصر من الكتاب هو الذي

قُلّل لفظه واُستوفي معناه . والانسان هكذا هو اذا اعتبر بالعالم . ومن حيث انه جعل من صفوة العالم ولبابه وخلاصته وثمرته فهو كالزُبد من المخيض والدهن من السمسم فما من شيءٍ الا والانسان يشبهه من وجه فانه كالاركان من حيث ما فيه من الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة . وكالمعادن من حيث ماهو جسم . وكالنبات من حيث مايتغذى ويتربى . وكالبهيمة من حيث ما يحس ويتوهم ويتخيل ويلتذو يتألم . وكالسبع من حيث مايحرض[1] ويغضب . وكالشيطان من حيث ما يُغوي ويُضل . وكالملائكة من حيث مايعرف الله تعالى ويعبده ويخلفه . وكاللوح المحفوظ من حيث قد جعله الله مجمع الحكم التي كتبها فيه على سبيل الاختصار . فقد ذكر بعض الحكماء في بدن الانسان اربعة الاف حكمة وفي نفسه قريباً من ذلك . وكالقلم من حيث ما يثبت بكلامه صور الاشياء في قلوب الناس كما ان القلم يثبت الحكم في اللوح المحفوظ * ولكون الانسان من قوى مختلفة قال الله تعالى : (انّا خلقنا الانسان من نطفة امشاج) اي مختلطة من قوى اشياء مختلفة . ولكون العالم والانسان متشابهين اذا اعتبرا قيل الانسان عالَم صغير والعالَم انسان كبير ولذلك قال الله تعالى : (ماخلقكم

(١) حرُض ككرم طال همهُ وسقمهُ

ولا بعثكم الا كنفس واحدة) . فاشار بالنفس الواحدة الى ذات العالم . ولما كان كل مركب من اشياء مختلفة يحصل باجتماعهن معنى ليس بموجود فيهن على انفرادهن كالمركبات من الادوية والاطعمة كذلك في نفس الانسان حصل معنى ليس في شيء من موجودات العالم وذلك المعنى هو ما يختص به من خصائصه التي بها تميّز عن غيره من هيآت له كانتصاب القامة وعرض الظفر وانفعالات له كالضحك والحياء وافعال كتصور المعقولات وتعلم الصناعات واكتساب الاخلاق

الباب الخامس

في تكوين الانسان شيئاً فشيئاً حتى يصير انساناً كاملاً

الانسان يكون اولاً جماداً ميتاً قال الله تعالى: (وكنتم امواتاً فأحياكم . وذلك حيث كان تراباً وطيناً وصلصالاً ونحوها . ثم يصير نباتاً نامياً كما قال الله تعالى: (والله انبتكم من الارض نباتا) وذلك حيث ما كان نطفة وعلقة ومضغة ونحوها . ثم يصير حيواناً وذلك حيث ما يتبع بطبعه بعض ما ينفعه ويحترز من بعض ما يضره . ثم يصير انساناً مختصاً بالافعال الانسانية وقد نبه الله تعالى على ذلك في مواضع نحو قوله : (يا ايها الناس ان كنتم في

Digitized by Google

ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلَّقة وغير مخلَّقة) الآية . وقوله : (أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سوّاك رجلا) . فأول ما يظهر فيه قوة النزاع الموجودة في النبات والحيوان ثم قوة تناول الموافق ودفع المخالف ثم الحس ثم التخيل ثم التصور ثم التفكر ثم العقل فهو لم يصر انساناً الاَّ بالفكر والعقل الذي به يميز بين الخير والشر والجميل والقبيح . والى العقل اشار الله تعالى بقوله : (وصوّركم فأَحسن صوَرَكم) . فالانسان بعقله صار معدن العلم ومركز الحكمة . ووجود العقل فيه في ابتداء الامر بالقوة كوجود النار في الحجر المحتاج في ان يَرِيَ[1] الى الاقتداح وكوجود النخل في النوى المحتاجة في ان تثمر الى غرس وسقي . وكوجود الماء تحت الارض المحتاجة في الاستقاء منه الى حفره * ونفس الانسان واقعة بين قوتين : قوة الشهوة وقوة العقل . فبقوة الشهوة يحرص على تناول اللذات البدنية البهيمية كالغذاء والسفاد والتغالب وسائر اللذات العاجلة . وبقوة العقل يحرص على تناول العلوم والافعال الجميلة والامور المحمودة العاقبة . والى هاتين القوتين اشار الله تعالى بقوله : (انا هديناه السبيل إما شاكراً واما كفورا) . وبقوله :

---

(١) من وَرِيَ الزند اذا خرجت ناره

(وهديناه النجدين)

ولما كان من جبلة الانسان ان يتحرى ما فيه اللذة وكانت اللذات على ضربين : احدهما محسوس كلذة المذوقات والملموسات والمشمومات والمسموعات والمبصرات وهي من توابع الشهوة الحيوانية والثاني معقول كلذة العلم وتعاطي الخير وفعل الجميل . واللذات المحسوسة اغلب علينا لكونها اقدم وجوداً فينا لانها توجد في الانسان قبل ان يولد وهي ضرورية في الوقت ولذلك قال الله تعالى : (يحبون العاجلة ويذرون الآخرة) ولذلك يكره اكثر الناس ما يأمر به العقل ويميل الى ما يأمر به الهوى حتى قيل : العقل صديق مقطوع والهوى عدوّ متبوع . ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : حُفّت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات . ولذلك يحتاج الانسان ان يقاد في بداءِ امره الى مصالحه بضرب من القهر حتى قال صلى الله عليه وسلم : يا عجباً لقوم يقادون الى الجنة بالسلاسل . فحقٌّ الانسان ان يجاهد هواه الى ان يقتحم العقبة فيتخلص حينئذٍ من اذاه

وللنفس نظران : نظرٌ الى فوق نحو العقل ومنه تستمد المعارف وتميز بين المحاسن والقبائح فعترف كيف تتحرى المحاسن وتتجنب القبائح . ونظرٌ الى تحت نحو الهوى وبه تنسى الحقائق وتألف

الخسيسات بل القاذورات . والنفس متى كانت شريفة ادامت النظر الى فوق كما ذكرنا ولا تنظر الى مادونها الا عند الضرورة ولا تتناول اللذات البدنية الا بحسب ما يرسمه العقل المستمد من الشرع اواذا كانت دنيَّة ا كثرت الميل الى الشهوات البدنية فيحدث ذلك لها اذعاناً وانقياداً للشهوات فيستعبدها الهوى كما قال الله تعالى: (أفرأيتَ من اتخذ الهه هواه وأضلَّه الله على علم) وانما اضله بعد ان اتخذ الهه هواه وجعله عبداً لأغراض دنيوية كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : تعس عبد الدرهم .. الخبر . ومن هذه العبودية استعاذ ابراهيم الخليل عليه السلام حيث قال: (واجنُبْني وبنيَّ أن نعبد الاصنام)

الباب السادس

في ظهور الانسان في شعار الموجودات وتخصيصه بقوة شيء فشيء منها

ذات الانسان من حيث ما اجتمع فيه قوى الموجودات صار وعاء معاني العالم وطينة صوره ومعدن آثاره ومجمع حقائقه وكأنه مركب من جمادات ونباتات وبهائم وسباع وشياطين وملائكة ولذلك قد يظهر في شعار كل واحد من ذلك فيجري تارة مجرى الجمادات في الكسل وقلة التحرك والانبعاث وعلى هذا

Digitized by Google

نبه الله تعالى بقوله : (ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة او اشدُّ قسوة) وقد يظهر في شعار النباتات الحميدة او الذميمة فيصير إما كالأُترج[١] الذي يطيب حمله ونَوْره[٢] وعوده وورقه او كالنخل والكرم فيما يؤتي من النفع او كالكشوت[٣] في عدم الخير او كالحنظل في خبث المذاق وعلى هذا نبه الله تعالى بقوله :(مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة اصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي اكلها كلَّ حين باذن ربها ويضرب الله الامثال للناس لعلهم يتذكرون ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اُجتُثَّت[٤] من فوق الارض ما لها من قرار) . ويظهر تارة في شعار الحيوانات المحمودة والمذمومة فيصير اما كالنحل في كثرة منافعه وقلة مضاره وفي حسن سياسته قال الله تعالى : (وأوحى ربك الى النحل أَن اُتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون) او كالطير المسمى بأَبي الوفا او كالخنزير في الشره او كالذئب في العيث او كالكلب في الحرص او كالنمل في الجمع او كالفار في السرقة او كالثعلب في المراوغة او كالقرد في المحاكاة او كالحمار في البلادة او كالثور في الفظاظة وعلى هذا

(١) الأُترج : فاكهة معروفة الواحدة أُترجة . (٢) النوْر : الزهر
(٣) الكشوث بفتح الكاف وضمها : نبت يتعلق بالاغصان لا عرق له ولا ورق ولا نسيم ولا ظلّ ولا زهر وهو يفسد الثمار ويضرّ الاشجار . (٤) الجثُّ القطع او انتزاع الشجر من اصله

النحو من المتشابهات دلَّ الله بقوله : « وما من دابة في الارض ولا طائر يطير بجناحيه الاَّ أُمم امثالكم ما فرَّطنا في الكتاب من شيءٍ ثم الى ربهم يحشرون » ويظهر تارة في شعار الشياطين فيغوي ويضل ويسول بالباطل في صورة الحق كما دل الله تعالى بقوله : « شياطين الإِنس والجن يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا » وانما يكون انسانًا اذا وضع كل واحد من هذه الاشياء في موضعه حسب ما يقتضيه العقل المرتضي المستبصر بنور الشرع

الباب السابع

في ماهية الانسان

ماهية كل شيءٍ تحصل بصورته التي يتميز بها عن اغياره كصورة السكين والسيف والمنجل ونحوها ولما كان الانسان جزئين بدن محسوس وروح معقول كما نبه الله تعالى عليه بقوله : « اني خالق بشرًا من طين فاذا سوَّيتهُ ونفختُ فيه من روحي فقعوا له ساجدين » كان له بحسب كل واحد من الجزئين صورة فصورته المحسوسة البذنية انتصاب القامة وعرض الظفر وتعري البشرة عن الشعر والضحك وصورته المعقولة الروحانية العقل والفكر والرويّة والنطق قالوا فالانسان هو الحيوان الناطق ولم يعنوا بالناطق اللفظ

المعبر به فقط بل عنوا به المعاني المختصة بالانسان فعبروا عن كل ذلك بالنطق فقد يعبر عن جملة الشيء بأخص ما فيه او بأشرفه او بأوله كقولك سورة الرحمن وسورة يوسف وسورة لإيلاف ونحو ذلك فالانسان يقال على ضربين عام وخاص فالعام ان يقال لكل منتصب القامة مختص بقوة الفكر واستفادة العلم والخاص ان يقال لمن عرف الحق فاعتقده والخير فعمله بحسب وسعه وهذا معنًى يتفاضل فيه الناس ويتفاوتون فيه تفاوتاً بعيداً وبحسب تحصيله يستحق الانسانية وهي تعاطي الفعل المختص بالانسان فيقال فلان اكثر انسانية ٠ وكما يقال الانسان على وجهين يقال له الحيوان الناطق على وجهين عام ويراد به مَنْ في قوة نوعه استفادة الحق والخير كقولك الانسان هو الكاتب دون الفرس والحمار اي هو الذي في قوته استفادة الكتابة ٠ وخاص ويراد به من حصَّل الحق فاعتقده والخير فعمله كما يقال زيد هو الكاتب دون عمرو اي هو المختص بعلم الكتابة ٠ وكذا يقال له عبد الله على وجهين عام ويراد به الحيوان المتعرض لارتسام اوامر الله ارتسم او لم يرتسم وهو المشار اليه بقوله تعالى : (إن كل من في السموات والارض الا آتي الرحمن عبدا) وخاصٌ وهو المرتسم لأوامر الله تعالى كما قال سبحانه : (ان عبادي ليس لك عليهم سلطان)

وكذا يقال له حيٌّ وسميع وبصير ومتكلم وعاقل كل ذلك على وجهين يقال عاماً وهو لمن له الحياة الحيوانية التي بها الحس والتخيل والنزوع والشهوة ولمن سمع الاصوات ولمن يدرك الالوان ولمن يُفهم الكافة بما يريده ولمن له القوة التي يتبعهـا التكاليف والثاني يقال له خاصاً وهو لمن له الحياة التي هي العلم المقصود بقول الله تعالى : (لِيُنْذِرَ مَن كان حياً) وله السمع الذي به يسمع حقائق المعقولات والبصيرة التي بها يدرك الاعتبارات واللسان الذي به يورد التحقيقات وهي التي نفاها عن الجهلة الكفرة في قوله تعالى : (صمٌّ بكمٌ عميٌ فهم لا يعقلون)

الباب الثامن

في كون الانسان مستصلحًا للدارين

الانسان من بين الموجودات مخلوق خلقة تصلح للدارين وذلك ان الله تعالى قد اوجد ثلاثة انواع من الأحياء نوعاً لدار الدنيا وهي الحيوانات ونوعاً للدار الاخرة وهو الملأ الاعلى ونوعاً للدارين وهو الانسان فالانسان واسطة بين جوهرين وضيع وهو الحيوانات ورفيع وهو الملائكة فجمع فيه قوى العالَمَيْنِ وجعله كالحيوانات في الشهوة البدنية والغذاء والتناسل والمهارشة والمنازعة

Digitized by Google

وغير ذلك من اوصاف الحيوانات . وكالملائكة في العقل والعلم وعبادة الرب والصدق والوفاء ونحو ذلك من الاخلاق الشريفة ووجه الحكمة في ذلك انه تعالى لما رشَّحهُ لعبادته وخلافته وعمارة ارضه وهيأه مع ذلك لمجاورته في جنته اقتضت الحكمة ان يجمع له القوتين فانه لو خُلق كالبهيمة معرىً عن العقل لما صلح لعبادة الله تعالى وخلافته كما لم يصلح لذلك البهائم ولا لمجاورته ودخول جنته . ولو خلق كالملائكة معرىً عن الحاجة البدنية لم يصلح لعمارة ارضه كما لم يصلح لذلك الملائكة حيث قال تعالى في جوابهم : « إني اعلمُ مالا تعلمون » فاقتضت الحكمة الالهية ان تجمع له القوتان وفي اعتبار هذه الجملة تنبيه على ان الانسان دنيويٌّ واخرويٌّ وانه لم يُخلَقْ عبثاً كما نبه الله عليه بقوله : « أَفحسبتم أَنما خلقناكم عبثاً وأَنكم الينا لا ترجعون »

الباب التاسع

في تمثيل ذات الانسان وتصويره

قد ذكر الحكماء لذات الانسان وقواها مثالاً صوَّروها بها فيتمثل كل مالا يدرك الا بالعقل بتصور الحس ليقرب من الفهم فقالوا ذات الانسان لما كان عالماً صغيرا كما تقدم جرى مجرى

Digitized by Google

بلد احكم بناؤه وشيد بنيانه وحصن سوره وخطت شوارعه وقسمت محاله وعمرت بالسكان دوره وسلكت سبله واجريت انهاره وفتحت اسواقه واستعملت صناعه وجعل فيه ملك مدبر وللملك وزير وصاحب بريد واصحاب اخبار وخازن وترجمان وكاتب وفي البلد اخيار واشرار . فصناعها هي القوى السبعة التي يقال لها الجاذبة والماسكة والهاضمة والدافعة والنامية والغاذية والمصورة والملك العقل ومنبعه من القلب . والوزير القوة المفكرة ومسكنها وسط الدماغ . وصاحب البريد القوة المتخيلة ومسكنها مقدم الدماغ . واصحاب الاخبار الحواس الخمس ومسكنها الاعضاء الخمسة . والخازن القوة الحافظة ومسكنها خلف الدماغ . والترجمان القوة الناطقة وآلتها اللسان . والكاتب القوة الكاتبة وآلتها اليد وسكانها الاخيار والاشرار هي القوى التي منها الاخلاق الجميلة والاخلاق القبيحة وكما أن الوالي اذا تزكى وساس الناس بسياسة الله صار ظل الله في الارض كما روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: السلطان ظل الله في الارض ويجب على الكافة طاعته كما قال الله تعالى: « اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الأمر منكم » كذلك متى جعل العقل سائساً وجب على سائر قوى النفس ان تطيعه . وكما ان الله تعالى جعل الناس متفاوتين كما نبه

Digitized by Google

الله تعالى عليه بقوله : « ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضُهم بعضاً سخرياً » . كذلك جعل قوى النفس متفاوتة وجعل من حق كل واحدة ان تكون داخلة في سلطان مافوقها ومتأمرة على مادونها . فحق القوة الشهوانية ان تكون مؤتمرة للقوة الغضبية . وحق القوة الغضبية ان تكون مؤتمرة للقوة العاقلة وحق القوة العاقلة ان تكون مستضيئة بنور الشرع ومؤتمرة لمراسمه حتى تصير هذه القوى متظاهرة غير متعادية كما قال الله تعالى : « ونزعنا مافي صدورهم من غِلّ إِخواناً على سُرُرٍ متقابلين » . وكما لاينفك اشرار العالم من ان يطلبوا في العالم الفساد ويعادوا الاخيار كما قال تعالى : « وكذلك جعلنا في كل قرية اكابر مُجرميها ليمكروا فيها » . وقال سبحانه : « وكذلك جعلنا لكل نبي عدوّاً شياطينَ الأنس والجن » . كذلك في نفس الانسان قوى رديئة من الهوى والشهوة والحسد تطلب الفساد وتعادي العقل والفكر . وكما نبه انه يجب للوالي ان يتبع الحق ولا يُصغي الى الاشرار ولا يعتمدهم كما قال تعالى : « ياايها الذين امنوا لاتتخذوا بطانةً من دونكم . . » الآية . وقال تعالى : « ياايها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى اولياءَ » . وقال : « وأن أُحكم بينهم بما انزل الله ولا تَتَّبعْ اهواءهم واُحذَرْهم أَن يفتنوك » .

كذلك يجب للعقل والفكر ان لا يعتمد القوى الذميمة ·

وكما انه يجب للوالي ان يجاهد اعداء المسلمين كما قال تعالى « وأَعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدوَّ الله وعدوكم» · كذلك يجب للعقل ان يعادي الهوى فان الهوى من اعداء الله بدلالة قول النبي صلى الله عليه وسلم: مافي الارض معبود ابغض الى الله من الهوى ثم تلا أفرأَيتَ من اتخذ الهه هواه · وكما ان من استحوذ عليه الشيطان انساه ذكر الله كذلك العقل اذا استحوذ عليه الهوى · وكما انه يجب للوالي ان يسالم اعاديه اذا لم يقو عليهم كما قال الله تعالى : « وان جنحوا للسلم فاجنح لها » وان لا يركن اليهم وان سالمهم كما قال الله تعالى : « ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار» كذلك يجب للعقل ان يسالم الاشرار من قوى النفس اذا عجز عنها وان لا يركن اليها

وكما ان الوالي اذا احس بقوة احتاج الى ان يعدل الى نقض العهد واظهار المعاداة كما قال الله تعالى : « فاذا انسلخ الاشهر الحرُمُ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخُذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كلَّ مرصد» · كذلك حقُّ العقل اذا قوِيَ على قوى النفس ان لا يداهنها · وكما ان شياطين الانس والجن يضعف كيدهم على من تحصن بالايمان واستعاذ بالله وتقوّى على من

والاه كما قال تعالى : « انما سلطناه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون » كذلك يضعف كيد الهوى عن العقل اذا تقوّى بالله واستعاذ به . فحقٌ العقل ان يستعيذ من الهوى والشره والحرص والامل وان يطهر ذاته منها ومن سائر القوى الرديئة استعاذة ابراهيم صلوات الله عليه حيث قال: (رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبني وبَنيَّ ان نعبد الاصنام) . فالقوى الرديئة والارادات الرديئة في ذات الانسان جارية مجرى اصنام قلَّ ما ينفك الانسان من عبادتها كما قال الله تعالى : « ومايؤمن اكثرهم بالله الا وهم مشركون » وذكروا مثلاً آخر فقالوا : كل انسان مع بدنه كوالٍ في بلد قيل له طهّر بلدك من النجاسات وادّب من يقبل التأديب من اهله ورُضْ من يقبل الرياضة من حيوانه وسباعه . ومن عاث (١) فيه ولا يقبل التأديب والرياضة فاحبسه او اقتله ولكن بالحق كما قال الله تعالى : « ولا تقتلوا النفسَ التي حرَّم اللهُ الاَّ بالحق » فان عجزتَ عن تطهير عرصته من الانجاس وعن تأديب طغاته ورياضة حيواناته وسباعه فلا تعجز عن صيانة نفسك عن التلطخ بنجاساته وعن الاحتراس من ان تفترسك سباعه وان يسبيك طغاته حتى اذا لم تكن غالباً لم تكن مغلوباً . فصار الناس في ذلك بين ثلاثة

---

(١) العيث الافساد

اصناف : صنف لم يفعل ما أُمر ولم يؤَد حق الإِيالة وتهاون فيما فوض اليه فجرح وأُسر فصار عند نفسه مع كونه مجروحاً مأسوراً ملوماً مخذولا . وصنف فعل ما أُمر فأدّى حق الايالة فصار عند ربه مأجوراً مشكورا . وصنف جدّ تارة وقصّر تارة فجرح وجُرح وغَلب وغُلب فهو كما قال تعالى : (خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله ان يتوب عليهم) وقال بعضهم : الانسان اذا اعتُبر مع قوة التخيل وقوة الغضب وقوة الشهوة فمثله مثل من بلي في سفره بصحبة ثلاثة اضطر اليهم حتى لا يمكنه ان ينفصل منهم ويقضي سفره من دونهم كما قال الشاعر :

ومن نكد الدنيا على الحرّ أن يرى عدوًّا له ما من صداقته بدُّ

فيا نكد الدنيا متى انت نازح عن الحر حتى لا يقاربه ضد

فواحدٌ أَمامه هو له رقيب يحفظه وعين تكلأه لكنه ملَق[1] باهت مموّه يلفق الباطل تلفيقاً ويختلق الزور اختلاقاً فيخلط الكذب بالصدق والخطأ بالصواب . والثاني عن يمينه بطش زَعِر[2] يحميه عن اعاديه لكنه كثيرًا ما يغويه فيهيج هائجه فلا يقمعه النصحُ ولا يطأْطئه الرفق كأنه نار في حطب او سيل في صبب او قَرْمٌ مغتلِمٌ[3] او سبع ثاكل[4] فيحتاج ان يُسكّنهُ دائماً فيحتمي به

(١) الملق المعطي باللسان ما ليس في القلب (٢) شرِس (٣) القرْم البعير والمغتلم الشديد الهياج . (٤) الثكل فقدان الحبيب او الولد

ومنه فهو معه كما قيل : راكب الأسد يهابه الناس وهو في نفسه اهيب . والثالث عن يساره وهو الذي يأتيه بالمطعم والمشرب لكنه ارعن (١) ملق قَذِر شَبِق (٢) كانه خنزير أجيع فأرسل في جَلَّة (٣) يأتيه احياناً بأطعمة خبيثة فيكرهه على تناولها فهو يحتاج ان يصابرهم حتى يقطع سفره فيبلغ ارضاً مقدسة يشرق فيها النور ويشرب فيها الذئب والنعجة من حوض واحد فيأمن فيها بوائقهم ومن حيلته التي ترجى ان يسلم منهم بها ان يسلط هذا البطش الزَّعِر على هذا الأرعن الملق حتى يزبره زبراً (٤) وان يطفي غلو هذا الزعر التائه بخلابة هذا الارعن المَلِق وان لا يجنح الى الباهت المتخرص حتى يؤتيه موثقاً من الله غليظاً ثم يصدقه فيما ينهيه اليه فجعل الملق الباهت كناية عن الوهم والبطش الزعر عن الغضب والارعن الملق عن الشهوة وجعل الارض المقدسة عبارة عن دار السلم وذكر ان حيلته في ان يسلم منهم ان يدفع بعض هذه القوى ببعض دفع الشر بالشر

---

(١) الرعونة الحمق . (٢) الشبق الشديد الغلمة والشهوة (٣) الجلة بالفتح البعرة وتطلق على العذرة (٤) الزبر الزجر والانتهار

Digitized by Google

الباب العاشر

في كون الانسان هو المقصود من العالم
وايجاد ما عداه لأجله

المقصود من العالم وايجاده شيئاً بعد شيء هو ان يوجد الانسان فالغرض من الاركان ان يحصل منها النبات ومن النبات ان تحصل الحيوانات ومن الحيوانات ان تحصل الاجسام البشرية ومن الأجسام البشرية ان يحصل منها الارواح الناطقة ومن الارواح الناطقة ان يحصل منها خلافة الله تعالى في ارضه فيتوصل بايفاء حقها الى النعيم الابدي كما دلّ الله تعالى عليه بقوله : (اني جاعل في الارض خليفة) . وجعل تعالى الانسان سلالة العالم وزبدته وهو المخصوص بالكرامة كما قال تعالى : (ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) . وجعل ما سواه كالمعونة له كما قال تعالى في معرض الامتنان : (هو الذي خلق لكم ما في الارض جميعاً) . فليس فضله بقوة الجسم فالفيل والبعير اقوى جسماً منه ولا بطول العمر فالنسر والحية اطول منه عمراً ولا بشدة البطش فالاسد والنمر اشد منه بطشاً ولا بحسن اللباس فالطاووس

Digitized by Google

والدراج [1] احسن منه لباساً ولا بالقوة على النكاح فالحمار والعصفور اقوى منه نكاحاً ولا بكثرة الذهب والفضة فالمعادن والجبال اكثر منه ذهباً وفضةً وما احسن قول الشاعر :

لولا العقول لكان ادنى ضيغم   ادنى الى شرف من الانسان
ولما تفاضلت النفوس ودبرت   ايدى الكماة عواليَ المرّان

ولا بعنصره الموجود منه كما زعم ابليس حيث قال: (خلقتني من نار وخلقته من طين) . بل ذلك بما خصه الله تعالى به وهو المعنى الذي ضمنه فيه والامر الذي رشحه له وقد اشار اليه تعالى بقوله : « فاذا سويتُه ونفختُ فيه من روحي فقعوا له ساجدين» وبقوله : « خلقتُ بيديَّ » . والملائكة لما نبههم الله تعالى لفضل آدم تنبهوا فأذعنوا وسجدوا له كما أُمروا . وابليس لما نظر الى ظاهر آدم وبدنه وتعامى عما ذكر الله تعالى ولم يتأمل المعنى الذي ضمنه الله تعالى آدم والعاقبة التي جعلها له ابى واستكبر . وقد اقتدى به الكفار في ردّ الانبياء حيث قالوا : « ما هذا الاّ بشرٌ مثلكم يريد ان يتفضل عليكم » . وقالوا : « ما لهذا الرسول يأْكل الطعام ويمشي في الاسواق » . وقد نبه الله تعالى على ان الاعتبار بفضلهم ليس بظاهر ابدانهم وانما ذلك لمعاني في نفوسهم يعمى عنها الكفار

---

(١) الدُّراج بالضم والتشديد ضربٌ من الطير ذكراً كان او انثى

Digitized by Google

فقال عزَّ من قائل: «وتراهم ينظرون اليك وهم لا يبصرون» . اي لا يعرفون ما فضلتهم به . فمن وفّق لفضل ما أُعطي ولما رُشح له وأُعدَّ ثم سعى في مثاله فقد أُوتي خيرًا كثيرًا وما يذَّكر الاَّ اولو الالباب

الباب الحادي عشر

في الغرض الذي لاجله اوجد الانسان ومنازلهم

الغرض منه ان يعبد الله ويخلفه وينصره ويعمر ارضه كما نبه الله تعالى بآيات في مواضع مختلفة حسب مااقتضت الحكمة ذكره وذلك قوله تعالى: «وما خلقتُ الجنَّ والانس الا ليعبدون . وقوله: اني جاعل في الارض خليفة . وقوله: ليستخلفنهم في الارض . وقوله: ليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب . وقوله: يا ايها الذين آمنوا كونوا انصار الله . وقوله: واستعمركم فيها . وكل ذلك اشارة الى توليتهم امورًا لم يستصلح لها الا الانسان كما نبه الله تعالى عليه بقوله للملائكة: «اني اعلم ما لا تعلمون» . وذلك أَن الله تعالى ما كان موجدًا لما هو موجده وفاعلاً لما هو فاعله الا على اربعة اوجه:

الاول افعال تولاَّها بذاته وهي الابداع ومعنى الابداع

Digitized by Google

هو ايجاد الشيء من العدم واليه الاشارة بقوله تعالى : « بديع السموات والارض »

والثاني افعال استعبد فيها ملائكته وسماه قوم التكوينات وذلك اخراج الشيء من النقص الى الكمال اخراجاً غير محسوس فاعله وبذلك وصفهم الله تعالى بقوله : فالمدبّرات امرا . وهم ثلاثة اضرب ضرب اليهم القيام بالاجرام السماوية وقد قيل هم اسرافيل وميكائيل وجبرائيل ورضوان والمحتفّون بالعرش الموصوفون بقوله تعالى : « وترى الملائكة حافّين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين . وقوله تعالى : الذين يحملون العرش ومن حوله . . الآية » . وضرب اليهم تدبير الاركان الهوائية كالملائكة الباعثة للرياح والمزجية للسحاب الموصوفين بقوله تعالى : والمرسلات عُرْفـاً . وقوله عز وجل : والنازعات غرقا . وضرب اليهم تدبير الارض كالموصوفين بقوله تعالى : « له معقّبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من امر الله » . وكمن وصفه النبي صلى الله عليه وسلم في صفة الجنين انه يبعث ملكا فينفخ فيه الروح وكالحفيظ والرقيب والعتيد وكمن وصفهم الله بقوله : « ألن يكفيكم ان يمدّكم ربكم بثلاثة الاف من الملائكة منزلين »

Digitized by Google

والثالث افعال سخر الله تعالى لها الاركان وموجودات العالم كالاحراق والاذابة للنار والترطيب للماء وفي الجملة ماقد سخر تعالى له شيئاً فشيئاً من الجمادات والناميات وغير ذلك ونبه عليه بقوله تعالى : « وسخر لكم الشمس والقمر » . وغير ذلك من الايات المذكورة

والرابع الصناعات والمهن المحسوسة التي استعبد الانسان فيها واستخلفه وهي الاشياء التي يحتاج صناعة اكثرها الى ستة اشياء الى عنصر تعمل منه والى مكان والى زمان والى حركة والى اعضاء والى آلة وهذا الضرب خص الانسان به ولم يستصلح له الملائكة وجعل لكل من الملك مقاماً معلوماً كما نبه عليه تعالى بقوله : « وما منا الا له مقام معلوم » . وكذلك جعل لكل نوع من الناس مقاماً معلوماً كما نبه عليه بقوله : « قل كل يعمل على شاكلته » وقوله : « انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض » . وقول النبي صلى الله عليه وسلم كل ميسر لما خلق له . ولكن عامة الملائكة لم يعصوا الله فيما امرهم كما وصفهم تعالى بقوله : « لا يعصون الله ما امرهم ويفعلون ما يؤمرون * والناس فيما أمروا به وكلفوه بين مطيع وعاص فهم على القول المجمل ثلاثة اضرب : ضرب اخلوا بأمره وانسلخوا عما خلقوا لاجله واتبعوا خطوات الشيطان وعبدوا

الطاغوت . وضرب وقفوا (١) بغاية جهدهم حيث ماوقفوا كالموصوفين بقوله تعالى : « وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هوناً » وضرب ترددوا بين الطريقين كما قال الله تعالى : « خلطوا عملاً صالحًا وآخر سيئًا » فمن رجح حسناته على سيئاته فموعود بالاحسان اليه . وعلى الانواع الثلاثة دل الله تعالى بقوله : (وكنتم ازواجاً ثلاثة فأَصحابُ الميمنة مااصحاب الميمنة واصحاب المشئمة مااصحاب المشئمة والسابقون السابقون اولئك المقرَّبون) وعلى هذا اقسم الله تعالى في آخر السورة فقال : (فأَما إِن كان من المقرَّبين فروحٌ وريحانٌ وجنة نعيم وأَما ان كان من اصحاب اليمين فسلامٌ لك من اصحاب اليمين وأَما ان كان من المكذِّبين الضالين فنزلٌ من حميم وتصلية جحيم) . وكثيرٌ من الناس يعصون الله ولا يأْتمرون له فقيضهم الله تعالى بغير ارادة منهم للسعي في نصرته من حيث لا يشعرون كفرعون في اخذ موسى وتربيته . وكجمعه السحرة ليكون سبباً في ايمانهم . واخوة يوسف في فعلهم ما افضى به الى مُلك مصر وتمكنه مما تمكن منه ويكون مثلهم في ذلك كما قيل :

قصدتَ مساتي فاجتلبتَ مسرَّتي
وقد يُحسِنُ الانسانُ من حيث لا يدري

(١) في نسخة وفقوا

Digitized by Google

وقال آخر :

فعل الجميلَ ولم يكن من قصده فقبلته وقرنته بذنوبه
ولربّ فعل جاءني من فاعل فحمدته وذممتُ من يأتي به

فيكون فعلُه محموداً وفاعله مذموماً كما قيل :

رُبَّ امرٍ اتاك لا تحمد الـ فعّال وتحمد الافعالا

وقد اوجد الله تعالى كل ما في العالم للانسان كما نبه عليه بقوله تعالى : « جعل لكم الارض فراشاً والسماء بناءً وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم » . وقال تعالى : (وسخر لكم ما في السموات ومافي الارض ... الآية) . وقال عزّ وجل : «وسخر لكم ما في الارض» . وقول تعالى : « هو الذي انزل من السماء ماءً لكم منه شراب ومنه شجر فيه تُسيمون ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والاعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون وسخر لكم الليل والنهار .. الآية » . واباح جميعها لهم كما نبه الله تعالى عليه بقوله : « قل مَنْ حرَّم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق » . فللانسان ان ينتفع بكل ما في العالم على وجهه اما في غذائه او في دوائه او في ملابسه ومشموماته ومركوباته وزينته والالتذاذ بصورته او رؤيته والاعتبار

به وباستفادة علم منه والاقتداء بفعله فيما يستحسن منه والاجتناب عنه فيما يستقبح منه فقد نبه الله تعالى على منافع جميع الموجودات واطلع الخلائق عليها اما بألسنة الانبياء عليهم السلام او بالهام الاولياء رضي الله عنهم وكما أنَّ حق الانسان ان يعرف منافع الحيوانات في ذواتها فينتفع بها في المطاعم والملابس والادوية فحقه ان يعرف اخلاقها وافعالها فينتفع بها في اجتناء ما يستحسن واجتناب ما يستقبح منها . فقد احسن من قال : تعلمتُ من كل شيء احسن ما فيه حتى من الكلب حمايته على اهله . ومن الغراب بكورَه في حاجته . وقد اشار الله تعالى الى ذلك في وصف النحل فقال : « وأَوحى ربك الى النحل أَن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون ثم كلي من كل الثمرات .. الآية » فنبه على ان الانسان حقه ان يقتدي بالنحل في مراعاته لوحي الله عزَّ وجل فكما انها لا تتخطى وحي الله في تحري المصالح طبعاً كذلك يجب على الانسان ان لا يتخطى وحي الله اختياراً

الباب الثاني عشر

في تفاوت الناس واختلافهم

الأشياء كلها متساوية غير متفاوتة من حيث انها مصنوعة بالحكمة وعلى ذلك نبه الله تعالى بقوله: « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت » . ومختلفة من حيث ان كل نوع يختص بفائدة وكل نوع وان اختلف فما من شيء اكثر اختلافا من الناس كما قال الله تعالى: « وقد خلقكم اطوارا . وقال تعالى: ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات . وقال سبحانه وتعالى: انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة اكبر درجات واكبر تفضيلا . وقال سبحانه: ولو شاء الله لجعلكم امة واحدة ولكن ليبلوكم فيما اتاكم . وقال تعالى: ولو شاء ربك لجعل الناس امة واحدة . الآية . وقال تعالى: وهو الذي جعلكم خلائف الارض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم . وقال سبحانه: ولو شاء ربك لجعل الناس امة واحدة ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك . وعلى هذا نبه الله تعالى بقوله: وفي الارض قطع متجاورات وجنات من اعناب وزرع الى قوله ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون » . والحكمة المقتضية لذلك هو ان الانسان لما كان

غير مكفي بتفرده حتى لو ان انسانًا حصل وحده لامتنع او تعذر بقاؤه ادنى مدة فان اول ما يحتاج الانسان اليه ما يواريه وما يغذوه (١) وليس يجد ما يواريه مصنوعًا ولا ما يغذوه مطبوخًا كما يكون لكثير من الحيوانات بل هو مضطر الى اصلاحهما واصلاح ذلك يحوجه الى آلاتٍ غير مفروغ منها والانسان الواحد لا توصّلَ له الى إعداد جميع ما يحتاج اليه ليعيش العيشة الحميدة فلم يكن بُدٌّ الناس من تشارك وتعاون فجعل لكل قوم صنعة وهيئة مفارقة للصنّعة الأُخرى ليقتسموا الصناعات بينهم فيتولى كلٌّ منهم صنفًا من الصناعات فيتعاطاه باهتزاز كما قال الله تعالى : « فتقطعوا امرهم بينهم زُبرًا كلٌّ حزب بما لديهم فرحون » . فاقتضت الحكمة ان تختلف جثثهم وقواهم وهممهم فيكون كلٌّ ميسرٌ لما خُلق له . وقال تعالى : « قل كلٌّ يعمل على شاكلته » . فتكون معايشهم مقتَسَمَةً بينهم كما نبه الله عليه بالايات المتقدمة . وقال تعالى : « ولو شاءَ ربك لجعل الناس أُمةً واحدة ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك » . والاختلاف الحاصل بيِّنٌ . فالناس اذا اعتُبِرَ اختلاف اغراضهم وهممهم فهم في صناعاتهم في حكم المسخرين وان كانوا

(١) يقال غذوتُ الصبيَّ باللبن من باب عدا اي ربيته ولا يقال غذيته بالياء مخففًا ويقال غذيته مشدَّدًا

Digitized by Google

في الظاهر مختارين . وقد اشار النبي صلى الله عليه وسلم الى مايتعلق من المصلحة بتباينهم واختلاف طبقاتهم فقال: لا يزالُ الناس بخيرٍ ماتباينوا فاذا تساووا هلكوا

الباب الثالث عشر

في سبب تفاوت الناس

اسباب ذلك سبعة اشياءَ الاول اختلاف الأَمزجة وتفاوت الطينة واختلاف الخلقة كما اشير اليه فيما روي ان الله تعالى لما اراد خلق آدم عليه السلام امر ان يؤخذ من كل ارض قبضةٌ فجاءَ بنو آدم على قدر طينتها الاحمر والابيض والاسود والسهل والحَزْنُ والطيب والخبيث والى نحو هذا اشار الله تعالى بقوله: « والبلد الطيّب يخرج نباته باذن ربه والذي خَبُثَ لايخرج الاَّ نكدا » . وقال تعالى: « هو الذي يصوّركم في الارحام كيف يشاء »* والثاني اختلاف احوال الوالدين في الصلاح والفساد وذلك ان الانسان قد يرث من ابويه آثار ماهما عليه من جميل السيرة والخلق وقبيحهما كما يرث مشابهتَهما في خلقهما ولهذا قال الله تعالى: « وكان ابوهما صالحا » . وعلى نحوه روي انه قال التوراة: إني اذا رضيتُ باركتُ وإن بركتي لتبلغ البطن السابع واذ

سخطت لعنت وإن لعنتي لتبلغ البطن السابع تنبيهاً على ان الخير والشر الذي يكسبه الإنسان ويتخلق به يبقى اثره موروثاً الى البطن السابع * والثالث اختلاف ماتتكوّن منه النطفة التي يكون منها الولد ودم الطمث الذي يتربى به الولد فذلك له تأثيرٌ بحسب طيب ماتكونا منه وخبثه ولهذا قال صلى الله عليه وسلم تخيروا لنطفكم . وقال : الناكح غارس فلينظر احدكم اين يضع غرسه . وقال : اياكم وخضراء الدمن قيل وما خضراء الدمن قال المرأة الحسناء في المنبت السوء * والرابع اختلاف مايتفقد به من الرضاع ومن طيب المطعم الذي يتربى به ولتأثير الرضاع يقول العرب لمن تصفه بالفضل : لله درّه * والخامس اختلاف احوالهم في تأديبهم وتلقينهم وتطبيعهم وتعويدهم العادات الحسنة والقبيحة فحق الولد على الوالدين ان يؤخذ بالاداب الشرعية واخطار الحق بباله وتعويده فعل الخير كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : مُروهم بالصلاة لسبع واضربوهم لعشر . ويجب ان يصان عن مجالسة الاردياء فانه في حال صباه كالشمع يتشكل بكل شكل يُشكل به وان يحسن في عينه المدح والكرامة ويقبح عنده الذم والمهانة ويبغض اليه الحرص على المآكل والمشارب ويعوّد الاقتصاد في تناولها ومخالفة الشهوة ومجانبة ذوي السخف ويؤخذ بقلة النوم في النهار فهو يشيب ويورث الكسل

Digitized by Google

ويعوّد التأني في افعاله واقواله ويمنع من مفاخرة الاقران ومن الضرب والشتم والعبث والاستكثار من الذهب والفضة ويعوّد صلة الرحم وحسن تأدية فروض الشرع . قال بعض الحكماء : من سعادة الانسان ان يتفق له في صباه من يعوّده تعاطي الشريعة حتى اذا بلغ الحلم وعرف وجوبها فوجدها مطابقة لما تعوده قويت بصيرته ونفذت في تعاطيها عزيمته * والسادس اختلاف من يتخصص به ويخالطه فيأخذ طريقته فيما يتمذهب به (عن المرء لا تسأل وابصر قرينه) * والسابع اختلاف اجتهاده في تزكية نفسه بالعلم والعمل حين استقلاله بنفسه . والفاضل التام الفضيلة من اجتمعت له هذه الأسباب المسعدة وهو ان يكون طيب الطينة معتدل الامزجة جارياً في اصلاب آباء صالحين ذوي امانة واستقامة متكوناً من نطفة طيبة ومن دم طمث طيب على مقتضى الشرع ومرتضعاً بدرّ طيب ومأخوذاً في صغره من قبل مربيه بالاداب الصالحة وبالصيانة عن مصاحبة الاشرار ومتخصصاً بعد بلوغه بمذهب حق ومجهداً نفسه في تعرف الحق مسارعاً الى الخير فمن وُفق في هذه الأشياء تنجع فيه الخيرات من جميع الجهات كما قال الله تعالى : « لأكلوا من فوقهم ومن تحت ارجلهم » . ويكون جديراً ان يُعدّ ممن وصفه الله تعالى بقوله : « وانهم عندنا

Digitized by Google

لمن المصطفين الاخيار» . والرذل التام الرذيلة هو من يكون بعكس هذا في الامور التي ذكرناها * واعلم ان من طابت احواله انتفع بكل ماسمعه وشاهده ان خيراً وان شراً ومن خبثت احواله استضر بكل ماسمعه وشاهده وعلى ذلك دلّ الله تعالى بقوله: «والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه والذي خبث لايخرج الا نكداً» . فالخبيث من الارض وان طاب بذره وعذب ماؤه لاينبت الاّ خبيثاً والطيب من الارض وان كدر بذره وملح ماؤه لاينبت الاّ طيباً ولذلك قال سبحانه وتعالى في كتابه: «تسقى بماء واحد ونفضّل بعضها على بعض في الأكل . وقال في صفة كتابه: قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لايؤمنون في آذانهم وقرٌ وهو عليهم عمىً»

الباب الرابع عشر

في بيان الشجرة النبوية وفضلها على جوهر سائر البرية

اقتضت الحكمة ان تكون الشجرة النبوية صنفاً مفرداً ونوعاً واحداً واقعاً بين الانسان وبين الملَك ومشاركاً لكل واحدمنهما على وجهٍ فانهم كالملائكة في اطلاعهم على ملكوت السماوات والارض وكالبشر في احوال المطعم والمشرب . ومثلُه في كونه

Digitized by Google

واقعاً بين نوعين مثل المرجان فانه حجر يشبه الأشجار بتشذّب(١)
اغصانه وكالنخل فانه شجر شبيه بالحيوان في كونه محتاجاً الى
التلقيح وبطلانه اذا قطع رأسه . وجعل الله النبوة في ولد ابراهيم
ومن قبله في نوح كما نبه عليه بقوله « : ولقد ارسلنا نوحاً وابراهيم
وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب . وقال تعالى: ذرية بعضها من
بعض » . فهم عليهم السلام وان كانوا من حيث الصورة كالبشر
فهم من حيث الارواح كالملك قد أُيّدوا بقوةٍ روحانيةٍ وخُصّوا بها
كما قال الله تعالى في عيسى عليه السلام: « وايدناه بروح القدس »
وقال في محمد صلى الله عليه وسلم: « نزل به الروح الامين على قلبك
لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين » . وتخصيصهم بهذا الروح
ليمكنهم ان يقبلوا من الملائكة لما بينهم من المناسبة بتلك الارواح
ويلقون الى الناس لما بينهم من المناسبة البشرية لذلك قال سبحانه:
« ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون » . تنبيها
على ان ليس في قوة عامة البشر الذين لم يخصوا بذلك الروح ان
يقبلوا الاّ من البشر . ولما عمي الكفار عن ادراك هذه المنزلة وعما
للأنبياء من الفضيلة انكروا نبوّة الأنبياء كما قال الله تعالى :
« قالوا ان انتم الاّ بشرٌ مثلنا تريدون ان تصدونا عما كان يعبد آباؤنا

---

(١) اي بتفرّق

فأتونا بسلطان مبين » . فالأنبياء صلوات الله عليهم بالاضافة الى سائر الناس كالانسان بالاضافة الى الحيوانات وكالقلب بالاضافة الى سائر الجوارح وايضاً فمنزلة الانبياء من أممهم بمنزلة الشمس من القمر ومنزلة علمهم من علوم أممهم بمنزلة ضوء الشمس من نور القمر كما قال الله تعالى: « هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً » . فكما ان نور القمر مقتبس من ضوء الشمس وهو قاصر عنها كذلك منزلة الأمم من انبيائهم ومنزلة علمهم من علومهم . وكما لا يحصل النور للقمر الاّ بوساطة الشمس كذلك لا تحصل علوم الناس وتزكية نفوسهم الاّ بوساطة الانبياء وعلى هذا دل الله تعالى بقوله : « ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك انت العزيز الحكيم » . فالله تبارك وتعالى يزكي الأنبياء بوساطة الملك ويزكي من يشاء من الناس بوساطة الأنبياء كالطابع الذي جعل له كتابة ثم بوساطته يثبت في الشموع المختلفة شكل تلك الكتابة

الباب الخامس عشر

في هداية الاشياء الى مصالحها

كل ما اوجده الله سبحانه فانه هداه لما فيه مصلحته كما نبه عليه بقوله تعالى : « اعطى كل شيء خلقه ثم هدى » . لكن هدايته للجمادات بالتسخير فقط كالاشياء الارضية التي اذا تركت تنحو نحو السفل وكالنار التي تنحو الى العلو . وهدايته للحيوانات الى افعال تتعاطاها بالتسخير والالهام كالنحل فيما يتعاطى من السياسة واتخاذ البيوت المسدسة ومن عمل العسل . وكالسُّرفة(١) فيما تبنيه من الابنية . وكالعنكبوت في نسجه . وهدايته للملائكة بالتسخير والالهام وببداهة العقل وما جعل لها من العلوم الضرورية فاما الانسان فهدايته له تعالى بكل ذلك وبالفكر . وذلك أنه بالتسخير بنفسه وكثير من حركاته وبالالهام هدايته طفلا للارتضاع بالثدي وطلب الغذاء والتشكي من الالام بالبكاء وببديهة العقل يعرف مبادي العلوم وبالفكر يتوصل الى استنباط المجهول

---

(١) السرفة بالضم دويبة تتخذ بيتاً من دقاق العيدان فتدخله وتموت ومنه المثل (اصنع من سرفة) . وسرفت السرفةُ الشجرة اكلت ورقها ومنه السرف الذي هو الحد في النفقة

بالمعلوم فهو ان خلق عارياً من المعارف التي جعلها الله تعالى للحيوانات بالالهام ومن الملابس والاسلحة التي جعلها لها بالتسخير فقد جعل للانسان قوة التعلم بالعقل والفكر وتحصيل الملابس والاسلحة والالات المختلفة ووكله الى نفسه من الاستفادة ومكّنه من ذلك وذلك فضيلة لانقيصة ورفعة لا ضعة فانه باعطائه العلم والعقل واليد العاملة قد اعطاه كل شيء ولو أُعطي كل شيء حسب ما اعطي البهائم شيئاً فشيئاً لكان قد مُنع كلّ شيء لان بعضه كان يمنعه عن استعمال البعض . والى تمكن الانسان من تحصيل ما يريده اشار الله تعالى بقوله : « والله اخرجكم من بطون امهاتكم لاتعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والابصار والافئدة لعلكم تشكرون » وقد ظن قوم ان الله تعالى خلق الناس من بين الحيوان خلقاً منقوصاً اذ لم يعطوا سلاحاً يدفعون به عن انفسهم كما اعطى كثيراً من الحيوان اسلحة كالانياب والمخالب اذ لم يُكفهم لباسهم كما كفي الحيوان بل قد احوجهم الى تطهير البدن وقد اغناها عنه قالوا ولذلك قال الله تعالى : « وخُلق الانسان ضعيفا » . وليس كذلك والصحيح عند المخلصين ان الانسان وان كان ضعيفاً بالاضافة الى الباري تعالى والى الملإ الاعلى فليس يقصر عن الحيوان جميعه من جهة ماظنوه فان الله تعالى بحكمته البارعة

Digitized by Google

اعطى كل واحد من الحيوان سلاحا بقدر ماعلم من مصلحته فبعض جعل له آلة الهرب كالعَدْو وبعض جعل له رمحا يدفع به كالقرون للبقر والغنم وبعض دبوساً كالحافر للفرس والحمار وبعض نشابا كالشوك للقنفـذ وجعل لكلٍّ لباساً بحسب كفايته والهم كلاًّ منها صنعة يتعاطاها بطبعه وجعل للانسان بدل ذلك الفكر والتمييز الذي يمكنه ان يتخذ به كل آلة وكل ملبس على قدر حاجته اليه ويتناوله متى شاء ويضعه متى احب ويستبدل به كيفما اراد والحيوانات ليس لها ان تضع اسلحتها متى مااستغنت عنها ولا ان تستبدل بها فهذا دليل على تمام الانسان ونقصان الحيوانات والانسان بالفكر والرويَّة يقهر الحيوانات التي هي اقوى منه لانه يهيء بفكرته لكل منها آلة يصطادها بها فاذاً العقل الذي اعطاه ليحصل به كل مايحتاج اليه اعلى واشرف فانه مرآة اذا جلاها اطَّلع بها على ملكوت السموات والارض

الباب السادس عشر

في سعادة الانسان ونزوعه اليها

قال بعض الحكماء : جعل الله لكل شيء كمالاً ينساق اليه طبعا وقد هداه الى التخصيص به تسخيراً كما نبه الله عليه بقوله تعالى : « اعطى كل شيء خلقه ثم هدى » . وللانسان سعادات ابيحت له وهي النعم المذكورة في قوله تعالى : « وان تعدوا نعمة الله لاتحصوها » وجميع النعم والسعادات على القول المجمل ضربان ضرب دائم لا يبيد ولا يحول وهو النعم الأخروية . وضرب يبيد ويحول وهو النعم الدنيوية . والنعم الدنيوية متى لم توصلنا الى تلك السعادات فهي كسراب بقيعة وغرور وفتنة وعذاب كما وصفه الله تعالى في كتابه : « انما مثل الحياة الدنيا كماء انزلناه من السماء .. الآية » . وما اصدق ماقال الشاعر :

انما الدنيا كرؤيا افرحت   من رآها ساعة ثم انقضت

فصل

ما احد الا وهو فازع الى سعادة يطلبها بجهد ولكن كثيرا مايخطيء فيظن ماليس بسعادة في ذاته انه سعادة فيغتر بها فيكون كالموصوف بقول الله تعالى : « والذين كفروا اعمالهم كسراب

بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى اذا جاءه لم يجده شيئاً » . وبقوله تعالى : « اعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء » وقال الشاعر :

كلٌّ يحاول حيلة يرجو بها دفع المضرّة واجتلابَ المنفعة
والمرء يغلط في تصرف حاله فلربما اختار العناء على الدّعة

فصل

النعم الدنيوية انما تكون نعمة وسعادة متى تُنوولت على ما يجب وكما يجب ويجري بها على الوجه الذي لأجله خُلق وذلك ان الله جعل الدنيا عارية ليتناول منها قدر ما يتوصل به الى النعم الدائمة والسعادة الحقيقية . وشرع لنا في كل منها حكماً بيَّن فيه كيف يجب ان يتناول ويتصرف فيها لكن صار الناس في تناولها فريقين فريق يتناولوه على الوجه الذي جعله الله لهم فانتفعوا به فصار ذلك لهم نعمة وسعادة وهم الموصوفون بقوله تعالى : « الذين إنْ مكناهم في الارض اقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وامروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الامور . وقوله عزوجل : للذين احسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين وقوله تعالى : والذين هاجروا في الله من بعد ما ظُلموا لنبوأنهم في الدنيا حسنة » . فهؤلاء حيوا بها حياة طيبة كما قال تعالى : (فلنحيينّهُ حياةً طيبة) * وفريق يتناولوها لا على الوجه الذي

Digitized by Google

جعلها الله لهم فركنوا اليها فصار ذلك لهم نقمة وشقاوة فتعذبوا بها عاجلاً وآجلاً وهم الموصوفون بقوله تعالى: (انما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق انفسهم وهم كافرون)

فصل

والسعادات الأُخروية ليس لنا تصوُّر كنهها ما دمنا في دار الدنيا ولذلك قال تعالى: (فلا تعلم نفسٌ ما أُخفي لهم من قرة اعين) . وكما قال النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه تعالى: اعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأَت ولا اذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر * والسبب في قصورنا عن تصورها شيئان: احدهما ان الانسان لايمكن ان يعرف حقيقة الشيء وتصوره حتى يدركه بنفسه واذا لم يدركه ووصف له يجري مجرى صبي توصف له لذة الجماع فلا يمكن ان يتصوَّر حقيقته حتى يبلغ فيباشره بنفسه وكالأكمه توصف له المرآة وحالنا في اللذة الاخروية هكذا فانا لا نتصورها على الحقيقة الا اذا طالعناها فاذا طالعناها شغلنا الفرح والتلذذ بها عن كل مادونها كما قال تعالى: « اصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون » *والثاني ان لكل قوة من قوى النفس وجزء من اجزاء البدن لذة تختص بها لا يشاركها فيها غيرها فلذة العين في النظر الى ما تستحسنه ولذة السمع في الاستماع الى ما يستطيبه

ولذة اللمس في لمس ما يستلذه ولذة الوهم في تصور ما يؤمله ولذة الخيال في تخيل مايستحسن تصوره ولذة الفكر في امر مجهول عنده يتعرفه وكل واحد من هذه القوى والاجزاء اذا عرض لها آفة تعوقها عن شهوتها وعن ادراك لذتها يكون كالمريض الذي لا يشتهي الماء وكان به ظمأ واذا تناوله لم يجد له لذة كما قال الشاعر :

ومن يك ذا فم مر مريض يجد مرًّا به الماء الزلالا

واذا كان كذلك فاللذات الاخروية هي لذات لا تدرك الاّ بالعقل المحض وعقول اكثر من في هذه الدار مولهة معوقة عن ادراك حقائق اللذات الاخروية فلا تشعر بها كالخدر[1] لآفة عرضت له فلا يحس بالسبب المؤلم . وكالمريض الذي لا يحس بالجوع وان كان جوعه يؤذيه ولا يشتهي الطعام ان كان فقد الطعام يضنيه بل انما يحس بالجوع اذا زال السبب المؤلم . وايضاً فعقول اكثرنا ناقصة وجارية مجرى عقول الصبيان الذين لم يبلغوا مبلغ رجال قد عرفوا حقائق الاشياء فكما ان الصبيان ما داموا صغاراً لا يحسون باللذات والآلام التي تعرض للرجال فيتعللون بالاباطيل والاضاليل كذلك من كان في عقله صبياً لم يطلع على الحقائق وبالاعتبار بهم قال الله تعالى : « وما هذه الحياة الدنيا

(١) خدر العضو استرخى فلا يطيق الحركة

الاّ لهوٌ ولعب. وقال تعالى: فلا تغرّنكم الحياة الدنيا ولا يغرّنكم بالله الغرور» ولما اراد الله تعالى ان يقرّب معرفة تلك اللذات من افهام الكافة شبّهها ومثّلها لهم بانواع ماتدركها حواسهم فقال تعالى: «مثَل الجنة التي وُعد المتقون فيها انهار من ماء غير آسن وانهارٌ من لبن لم يتغير طعمه وانهار من خمر لذة للشاربين وانهار من عسل مصفى». ليبين للكافة طيبها بما عرفوه من طيب المطاعم وقال: «مثل الجنة التي وُعد المتقون». ولم يقل الجنة لينبه الخاصة على ان ذلك تصوير وتمثيل فالانسان وان اجتهد ما اجتهد ان يطلع على تلك السعادة فلا سبيل له اليها الاّ على احد وجهين احدهما ان يفارق هذا الهيكل ويخلّف وراءه هذا المنزل فيطلع على ذلك كما قال الله تعالى: «يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً ايمانها لم تكن آمنت من قبل او كسبت في ايمانها خيرًا قل انتظروا انا منتظرون». والثاني ان يزيل قبل مفارقة الهيكل الامراض النفسانية المشار اليها بقوله تعالى: «في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا» وارجاسها المشار اليها بقوله تعالى: «انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهلَ البيت ويطهركم تطهيرا» فيطلع من وراء ستر رقيق على بعض ما أُعدّ له كما حُكي عن حارثة حيث قال للنبي

Digitized by Google

صلى الله عليه وسلم عَزَفت [(١)] نفسي من الدنيا فكأني انظر الى عرش ربي بارزاً واطلع على اهل الجنة يتزاورون وعلى اهل النار يتعاوَوْن فقال له النبي صلى الله عليه وسلم عرفتَ فالزم ·
وقال امير المؤمنين عليٌّ عليه السلام : لو كُشف الغِطاء ماازددت يقيناً

الباب السابع عشر

في حال الانسان في دنياه وما يحتاج ان يتزود منها

الانسان مسافر ومبدأُ سفره من حيث ما اشار اليه تعالى بقوله : « وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدوٌّ ولكم في الارض مستقر ومتاع الى حين » · وحيث قال في صفة نبيه : « واذ اخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم وأَشهدهم على انفسهم أَلستُ بربكم قالوا بلى » · ومنتهى سفره دار السلام ودار القرار · وله في سفره اربعة منازل ظهر ابيه وبطن امه وظهر الارض والموقف وله حالتان حالة هو فيها مستودع وهو ما دام في هذه المنازل وحالة هو فيها مستقرٌّ وهو اذا حصل في دار القرار والى ذلك اشار الله تعالى بقوله : « وهو الذي انشأَ كم من نفس واحدة

(١) عزف عن الشيء انصرف عنه

Digitized by Google

فمستقر ومستودع » . والمنزل الذي فيه يحتاج الى تزودٍ ظهرُ الارض فالانسان في كَدْح و كَبَد (١) ما لم ينته الى دار القرار كما قال الله تعالى : « يا ايها الانسان انك كادح الى ربك كدحاً فملاقيه » . وقال تعالى : « لقد خلقنا الانسان في كَبَد » . وهو مجبول على طلب الراحة لكن الناس في طلبها على ضربين ضرب عموا عن الآخرة وقالوا : « ما هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا » او فعلوا فعل مَن قال ذلك وان لم يقولوا قولهم فطلبوا الراحة من حيث لا راحة وهم كالموصوفين بقوله عز وجل : « والذين كفروا اعمالهُم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئاً . وقوله : « انما مثل الحياة الدنيا كماء انزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض . . » الآية . فانهم طلبوا من الدنيا ما ليس في طبيعتها ولا موجوداً فيها ولها . وما احسن قول الشاعر :

اريد من زمني ذا ان يبلغني ما ليس يبلغه في نفسه الزمن

وقال آخر :

مضى قبلنا قوم رجوا ان يقوّموا بلا تعب عيشاً فلم يتقوّمِ

وضرب عرفوا الدنيا والآخرة وعلموا ان الدنيا كما قال الله تعالى : « ولكم في الارض مستقر ومتاع الى حين وان الدار الآخرة

---

(١) الكدح العمل والكدّ . والكبد المشدة وكابد الامر قاسى شدته

Digitized by Google

لهي الحيوان » . وعلموا ان فيها يستقر الانسان ويطمئن كما قال الله تعالى : « يا ايتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية » . وانه يحتاج الى ان يسافر اليها كما قال عليه السلام : سافروا تغنموا . فاحتملوا المشقة علماً ان كل تعب يؤديهم الى راحة فهو راحة فسعدوا كما قال الله تعالى : « فاما الذين سعدوا ففي الجنة » .

وقد جعل للانسان حرثين مفيدين لزادين احدهما روحاني كالمعارف والحكم والعبادات والاخلاق الحميدة وثمرته الحياة الابدية والغنى الدائم والاستكثار منه محمود ولا يكاد يطلبه الا من قد عرفه وعرف منفعته . والثاني جسماني كالمال والاثاث وفي الجملة ما قد نبه الله تعالى عليه بقوله : « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث » . وثمرته ان تحصل به الحياة الدنيوية الفانية ويسترجع من الانسان اذا فارق دنياه ولا ينتفع منه بشيء الا بقدر ما استعان به في الوصول الى الزاد الأخروي كما نبه الله تعالى عليه بقوله : « وما الحياة الدنيا في الآخرة الا متاع » . ولا يولع بالركون اليها الا من جهل حقائقها ومنافعها . والاستكثار منه ليس بمذموم ما لم يكن مثبطاً لصاحبه عن مقصده وكان متناولاً على الوجه الذي يجب وكما يجب

ومجعولاً الى الوجه الذي ينتفع به في مقصده لكن تناوله على هذا الوجه والاستكثار منه لا يتأتى الا اذا كان السلطان عادلاً والامور جارية على أذلالها [1] فيحفظ الناس معاملاتهم على مقتضى الشرع ثم يكون صاحبه اذا تناوله كما قال تعالى: «ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أُوتوا ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة». فاذا لم يكن الامر كما ذكرنا من الاستقامة فليس الا الاقتصاد والاقتصار والتبلغ بما امكن حتى ينقضي السفر. والموفق في الدنيا اذا رأى نفسه قاصرة عن الجمع بين الامرين اهتم بما يبقى واقل العناية بما يفنى وآثر الآخرة على الدنيا فلا يلتفت الى الدنيا الا بقدر ما يتبلغ به الى الآخرة مراعياً فيه حكم الشرع ومحافظاً لقول الله عز وجل: «يا ايها الناس ان وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور» وكما قال النبي صلى الله عليه وسلم: ما انا والدنيا انما مثلي فيها مثل راكب سار في يوم صائف فرفعت له شجرة فنزل فقام في ظلها ساعة ثم راح وتركها. وقد نبه الله تعالى على حال من يريد ان يتجرد ويتخلص من حبالة [2] الدنيا على سبيل المثل بقوله: (ان الله مبتليكم بنهر

---

(١) يقال امور الله جارية على اذلالها اي مجاريها جمع ذِل بالكسر

(٢) الحبالة ككتابة المصيدة

فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فانه مني الا من اغترف غرفة بيده) . ومحبة الدنيا كما قال النبي صلى الله عليه وسلم رأس كل خطيئة . وقد روي عنه صلى الله عليه وسلم : من سكن قلبه حب الدنيا بلي بثلاثة شغل لا يبلغ مداه وفقر لا يبلغ غناه وامل لا يبلغ منتهاه . وقال صلى الله عليه وسلم : من كانت الدنيا اكبر همه فرّق الله تعالى عليه همته وجعل فقره بين عينيه ولم يأته من الدنيا الا ما كتب له ومن كانت الآخرة اكبر همه جمع الله تعالى شمله وجعل غناه في قلبه واتته الدنيا وهي راغمة وهذا معنى قوله عز وجل : (من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب) ومعرفة ذلك والوصول اليه لا يمكن الا ان يستضيء العقل بنور الشرع معتمداً على من له الخلق والأمر

الباب الثامن عشر

في تظاهر العقل والشرع وافتقار احدهما الى الآخر

اعلم ان العقل لن يهتدي الا بالشرع والشرع لا يتبين الا بالعقل فالعقل كالأس والشرع كالبناء ولن يغني اس ما لم يكن بناء ولن يثبت بناء ما لم يكن اس . وايضاً فالعقل كالبصر والشرع

Digitized by Google

كالشعاع ولن يغني البصر مالم يكن شعاع من خارج ولن يغني الشعاع مالم يكن بصر ولهذا قال الله تعالى : « قد جاءكم من الله نورٌ وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبُل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه » . وايضاً فالعقل كالسراج والشرع كالزيت الذي يمده فان لم يكن زيت لم يحصل السراج ومالم يكن سراج لم يضيء الزيت قال الله تعالى : « الله نور السموات والارض مثَلُ نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأَنها كوكبٌ دريٌّ يوقد من شجرة مباركة زيتونة لاشرقية ولاغربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نورٌ على نور يهدي الله لنوره من يشاء » . والله هو الهادي . وايضاً فالشرع عقل من خارج والعقل شرع من داخل وهما متعاضدان بل متحدان ولكون الشرع عقلاً من خارج سلب الله تعالى اسم العقل من الكافر في غير موضع من القرآن نحو قوله : « صمٌّ بكمٌ عميٌ فهم لايعقلون » . ولكون العقل شرعاً من داخل قال في وصف العقل : « فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيّم » . فسمى العقل ديناً . ولكونهما متحدين قال (نورٌ على نور) اي نور الشرع ونور العقل ثم قال: « يهدي الله لنوره من يشاء » . فجعلهما نوراً واحداً فالشرع اذا فُقد العقلُ عجز عن

اكثر الأمور عجزَ العين عند فقد الشعاع

واعلم ان العقل بنفسه قليل الفناء[1] لايكاد يتوصل الاَّ الى معرفة كليات الأَشياء دون جزئياتها نحو ان يعلم جملة حسن اعتقاد الحق وقولِ الصدق وتعاطي الجميل وحسن استعمال العـدالة وملازمة العفة ونحو ذلك من غير ان يعرف ذلك في شيء شيء والشرع يعرف كليات الأَشياء ويبين ماالذي يجب ان يعتقد في شيء شيء وما الذي هو معدلةُ في شيء شيء ولا يعرفنا العقل مثلا ان لحم الخنزير والدم والخمر محرم وانه يجب ان يتحامى من تناول الطعام في وقت معلوم وان لاتنكح ذوات المحارم وان لاتجامع المرأَة في حال الحيض فان اشباه ذلك لاسبيل اليها الا بالشرع فالشرع نظام الاعتقادات الصحيحة والافعال المستقيمة والدال على مصالح الدنيا والآخرة ومن عدل عنه فقد ضلَّ سواء السبيل . ولاجل ان لاسبيل للعقل الى معرفة ذلك قال الله تعالى : « وما كنا معذِّبين حتى نبعث رسولاً » . وقد قال الله تعالى : « ولو أَنا اهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا ارسلتَ الينا رسولا فنتبع آياتك من قبل ان نذل ونخزى » . والى العقل والشرع اشار بالفضل والرحمة بقوله تعـالى : « ولولا

---

(١) الفناء بالفتح والمد النفع

فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان الا قليلا » . وعنى بالقليل المصطفين الاخيار

الباب التاسع عشر

في فضيلة الشرع

اعلم ان احكام الشرع من وجه دواء ومعجون مفروغ منه تولى ايجاده من له الخلق والأمر . وهو دواء مفيد للحياة الابدية والسلامة الدائمة كما قال الله تعالى : « أَوَمن كان ميتاً فاحييناه وقال تعالى : « وكذلك اوحينا اليك روحاً من امرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وانك لتهدي الى صراط مستقيم » . فجعل ذلك روحاً لإفادة الحياة الابدية . وقال الله تعالى: « قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء » . وقوله : « شفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين » * ومن وجه هو ماء مطهر مزيل للأنجاس والارجاس النفسية كما قال الله تعالى في وصفه للقرآن : « انزل من السماء ماء فسالت اودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً » . وكذلك قال الله تعالى : « انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيرا » * ومن وجه هو نور وسراج مزيل للظلمة

Digitized by Google

والحيرة والجهالة قال الله تعالى : «قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم . وقوله تعالى : الله نور السموات والارض» * ومن وجهٍ وسيلةٌ الى الله عز وجل كما قال : «يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا اليه الوسيلة» . وقال فيمن مدحهم : يبتغون الى ربهم الوسيلة ايُّهم اقرب ويرجون رحمته . وقوله تعالى : واعتصموا بحبل الله جميعا . وقوله تعالى : فليرتقوا في الاسباب» * ومن وجهٍ هو الطريق المستقيم كما قال الله تعالى : «وان هذا صراطي مستقيما» .

فصل

ذكر بعض الحكماء ان الارض المقدسة المذكورة في قوله تعالى «ياقوم ادخلوا الارض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على ادباركم» . هي في الدنيا الشريعة وفي الآخرة الجنة لانها هي التي اذا دخلها الانسان لا يرتد على دُبُره ونال السعادة الكبرى بلا مثنوية[1] فاما بيت المقدس في الارض فان من يدخله فبنفس دخوله اياه لا يستحق مثوبة بل المثوبة تستحق بأمور أُخر يكون دخوله المكان الذي هو بيت المقدس آخرها بعد ان

(١) يقال هبة ليس فيها مثنوية ولا ثنيا اي استثناء

يكون دخوله على وجه مخصوص وفي حال مخصوص · قال وعلى هذا الحرَم المذكور في قوله تعالى: « اولم يروا انا جعلنا حرَمًا آمنًا ويتخطف الناس من حولهم أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون » · وسأل جعفر بن محمد الصادق بعض الفقهاء عن هذه الآية فقال أُريد بها مكة فقال: واعجبا وايُّ ارض اكثر تخطفا لمن حولها من مكة · ويدل على ماقال قول الله تعالى بعد ذلك: « وما اوتيتم من شيءٍ فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وما عند الله خير وابقى أفلا تعقلون » وكذلك قوله تعالى: واذا قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم وقولوا حطة وادخلوا الباب سُجَّدًا نغفر لكم خطايا كم وسنزيد المحسنين » · والسفر الموعود بالغنيمة بقول النبي صلى الله عليه وسلم سافروا تغنموا هو السفر الى هذه الدار · وكذلك القرار المدعوّ اليه من جهة المثل بقوله ففرّوا الى الله · وكذا الحج الاكبر الذي دعا الناس اليه بقوله: « واذانٌ من الله ورسوله الى الناس يوم الحج الاكبر » وقوله تعالى: « ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا » وكذا الجهـاد الاعظم في قوله تعالى: « وجاهدوا في الله حق جهاده » · والهجرة الكبرى في قوله تعالى « أَلم تكن ارض الله واسعة فتهاجروا فيها » ·

Digitized by Google

الباب العشرون

في ان من لم يتخصص بالشرع وعبادة الله فليس بانسان

لما كان الانسان انما يصير انسانا بالعقل ولو توهمنا العقل مرتفعا عنه لخرج عن كونه انسانًا ولم يكن اذا تخطينا الشبح الماثل الاّ بهيمة مهملة او صورة ممثلة والعقل لن يكمل بل لا يكون عقلا الا بعد اهتدائه بالشرع كما تقدم ولذلك نفى العقل عن الكفار لما تعرّوا عن الهداية بالشرع في غير موضع من كتابه والاهتداء بالشرع هو عبادة الله تعالى فالانسان اذًا في الحقيقة هو الذي يعبد الله ولذلك خُلِقَ كما قال الله تعالى : « وماخلقتُ الجن والانس الاّ ليعبدون ما اريد منهم من رزق وما اريد ان يطعمون » . وكما قال تعالى : وما أُمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين » . فكل ما أُوجد لفعل فمتى لم يوجد منه ذلك الفعل كان في حكم المعدوم ولذلك كثيرًا مايسلب عن الشيء اسمه اذا وُجدفعله ناقصاً كقولهم للفرس الرديء ليس هذا بفرس وللانسان ليس هذا بانسان . ويقال فلان لاعين له ولا أُذن له اذا بطل فعل عينه وأُذنه وان كان شبحهما باقيًا وعلى هذا قال تعالى : صمٌ بكمٌ عميٌ » . فيمن لم ينتفع بهذه الاعضاء فالانسان يحصل له

Digitized by Google

من الانسانية بقدر مايحصل له من العبادة التي لاجلها خُلق فمن قام بالعبادة حق القيام فقد استكمل الانسانية ومن رفضها فقد انسلخ من الانسانية فصار حيوانا او دون الحيوان كما قال الله تعالى في وصف الكفار: «إِن هم الا كالانعام بل هم اضلّ سبيلا». وقال: ان شرّ الدواب عند الله الصمّ البكمُ الذين لايعقلون». فلم يرضَ ان يجعلهم انعاماً ودوابّ حتى جعلهم اضلّ منها وجعلهم من اشرارها واخرج كلامهم عن جملة البيان فقال تعالى: «وما كان صلاتهم عند البيت الا مُكاءً وتَصْدِيَة» تنبيها على انهم كالطيور التي تمكو وتُصَدّي[1] ونبه تعالى بنكتة لطيفة على ان الانسان لايكون انساناً الاّ بالدين ولا ذا بيان الا بقدرته على الاتيان بالحقائق الدينية فقال تعالى: «الرحمن علّم القرآن خلق الانسان علمه البيان». فابتدأ بتعليم القرآن ثم بخلق الانسان ثم بتعليم البيان ولم يدخل الواو فيما بينهما وكان الوجه على متعارف الناس ان يقول خلق الانسان وعلمه البيان وعلمه القرآن فان ايجاد الانسان بحسب نظرنا مقدم على تعليم البيان وتعليم البيان مقدم على تعليم القرآن لكن لما لم يُعَد الانسان انسانا مالم يتخصص بالقرآن ابتدأ بالقرآن ثم قال خلق الانسان

(١) مكا الطائر صفر. وصدّى صفق

تنبيهاً على ان بتعليم القرآن جعله انساناً على الحقيقة ثم قال علمه البيان تنبيهاً على ان البيان الحقيقي المختص بالانسان يحصل بعد معرفة القرآن فنبه بهذا الترتيب المخصوص وترك حرف العطف منه وجعل كل جملة بدلاً مما قبلها لاعطفاً على ان الانسان مالم يكن عارفاً برسوم العبادة ومتخصصاً بها لايكون انساناً وان كلامه مالم يكن على مقتضى الشرع لايكون بياناً . فان قيل فعلى ماذكرته لايصح ان يقال للكافر انسان وقد سماهم الله بذلك في عامة القرآن . قيل انا لم نقل انالانسمي الكافر انساناً على تعارف الكافة بل قلنا قضية العقل والشرع تقتضي ان لايسمى به الا مجازاً مالم يوجد منه العقل المختص به ثم ان سمي به على سبيل تعارف العامة فليس ذلك بمنكر فكثير من الاسماء يستعمل على وجه فيبين الشرع ان ليس استعماله على مااستعملوه كقولهم الغني فانهم استعملوه في كثرة المال وبين الشرع ان الغنى ليس هو كثرة المال قال عليه الصلاة والسلام ليس الغنى بكثرة المال وانما الغنى غنى النفس . فيشير الى ان الغنى ليس هو كثرة المال وقال تعالى «ومن كان غنياً فليستعفف» . اي كثير الأعراض (١) فاستعمله

---

(١) العرض بوزن الفلس المتاع وجمعه عروض ولا يجمع اعراض الأ على لغة من فتح الوسط

Digitized by Google

على ماهو متعارف . وجملة الامر ان اسم الشيء اذا اطلقه الحكيم على سبيل المدح يتناول الأشرف منه كقوله تعالى: «وانه لذكرٌ لك ولقومك . وقوله تعالى : «ورفعنا لك ذكرك» وان كان الذكر قد يقال للمحمود والمذموم . وعلى هذا يمدح كل شيء بلفظ نوعه فيقال فلان هو انسان وهذا السيف سيف ولهذا قيل الانسان المطلق هو نبي كل زمان وقد قال عليه الصلاة والسلام : الناس اثنان عالم ومتعلم وما عداهما همج (١) . وقال بعض العلماء : قول من قال الانسان هو الحي الناطق الميت صحيح وليس معناه ما توهمه كثير من الناس من انه من الحياة الحيوانية والموت الحيواني والنطق الذي هو في الانسان بالقوة وانما اريد بالحي من كان له الحياة المذكورة في قوله تعالى : «لينذر من كان حياً» . وبالنطق البيانَ المذكور بقوله : «علمه البيان» وبالميت من جعل قوته الشهوانية والغضبية مقهورتين على مقتضى الشريعة فيكون حينئذٍ ميتاً بالارادة حياً بالطبيعة كما قيل : مت بالارادة تحيَ بالطبيعة كما قال امير المؤمنين عليه السلام: من امات نفسه في الدنيا فقد احياها في الآخرة

---

(١) يقال للرعاع الحمقى انما هم همج واصله الذُباب الصغير يسقط على وجه الغنم وغيرها

الباب الحادي والعشرون .

فيما يتعلق بالشرع من الافعال

للانسان ضربان من الاحوال لا ينفك منهما ضرب لا يلحقه فيه محمدة ولا مذمة ولا في جنسه تكليف وذلك شيئان احدهما احوال ضرورية لا يمكنه ان ينفصى (١) منها كنبض العرق والتنفس وما يجري مجراهما من الاحوال الضرورية . والآخر مايقع من الانسان على سبيل السهو والخطأ وان كان جنسه مقدورا له وهو المذكور في قول النبي صلى الله عليه وسلم: رفع عن امتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه . وضرب تلحقه فيه المحمدة والمذمة وفي جنسه التكليف وذلك ثلاثة اشياء احدها الافعال المختصة بالجوارح كالقيام والقعود والركوب والمشي والنظر وكل ما يحتاج الى استعمال الاعضاء فيه . والثاني حفظ عوارض النفس كالشهوة والخوف واللذة والفرح والغضب والشوق والرحمة والغيرة وما اشبه ذلك . والثالث مايختص بالتمييز والعلم . وكل واحد من هذه الثلاثة اما ان يحمد عليه الانسان او يذم . فحمده ان تكون افعاله جميلة وعوارض نفسه مستقيمة وقلبه ذكيا حتى يعتقد الحق

---

(١) تفصى الانسان من الشهرة تخلص

ويقوى على معرفته اذا ورد عليه . والمذمة تلحقه ان كانت على اضداد ذلك . والعبادات بهذه الأشياء الثلاثة تختص . ولله تعالى في كل فعل يتحراه الانسان عبادة سواء كان الفعل واجباً او ندباً او مباحا وتكون تلك العبادة مبينة اما ببديهة العقل او بالكتاب او بلسان النبي او باجماع الامة او بالاعتبارات والاقيسة المبنية على هذه الاصول بل ما من حكم الا وكتاب الله ينطوي عليه كما قال الله تعالى : « مافرّطنا في الكتاب من شيءٍ » . عرفه من عرفه وجهله من جهله . وما من مباح الا واذا تعاطاه الانسان على مايقتضيه حكم الله تعالى كان الانسان في تعاطيه عابداً لله مستحقاً لثوابه كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لسعدٍ انك لتوجر في كل شيء حتى اللقمة تضعها في في امرأتك . ومخاطبته لسعد بذلك لما عرف منه انه يراعي في افعاله حكم الله تعالى . وعلى هذا الوجه قال : مامن مسلم غرس غرساً لم يأكل منه شيئاً الا كان له صدقة . ومراعاة امر الله في جميع الأمور دقيقها وجليها مستحب للكافة وواجب على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى كل من تقرب منزلته من منزلته لقول الله تعالى : « فاستقم كما أمرتَ ومن تاب معك »

الباب الثاني والعشرون

في تحقيق العبادة

العبادة فعلٌ اختياريٌّ منافٍ للشهوات البدنية تصدر عن نية يراد بها التقرب الى الله تعالى طاعةً للشريعة · فقولنا فعلٌ اختياريٌّ يخرج منه الفعل التسخيري والقهري ويدخل فيه الترك الذي هو على سبيل الاختيار فان الترك ضربان ضرب على سبيل الاختيار وهو فعل · وضرب هو العدم المطلق لا اختيار معه بل هو عدم الاختيار وليس بفعل · وبقولنا منافٍ للشهوات البدنية يخرج منه ماليس بطاعة واما الافعال المباحة كالاكل والشرب ومجامعة المرأة فليس بعبادةٍ من حيث انها شهوة ولكنها قد تكون عبادة اذا تحري بها حكم الشريعة وانما قيل تصدر عن نية يراد بها التقرب الى الله تعالى لانها ان خلت عن نية او صدرت عن نية لم يقصد بها التقرب الى الله تعالى بل اريد بها مراءاة لم تكن ايضاً عبادة وانما قيل طاعة للشريعة لان من انشأ من نفسه فعلا ليس بسائغ في الشريعة لم يكن عبادة وان قصد به التقرب الى الله تعالى فالعبادة اذًا فعل يجمع هذه الاوصاف كلها

Digitized by Google

الباب الثالث والعشرون

في انواع العبادة من العلم والعمل

العبادة ضربان علم وعمل وحقهما ان يتلازما لان العلم كالأس والعمل كالبناء وكما لا يغني أس مالم يكن بناء ولا يثبت بناء مالم يكن اس كذلك لا يغني علم بغير عمل ولا عمل بغير علم ولذلك قال الله تعالى: «اليه يصعد الكلم الطيّب والعمل الصالح يرفعه» . والعلم اشرفهما لكن لا يغني بغير عمل ولشرفه قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم ايما الاعمال افضل يارسول الله فقال العلم فاعاد عليه السوال فقال العلم فقال الرجل في الثالثة اسألك عن العمل لا عن العلم فقال عليه السلام عمل قليل مع العلم خير من عمل كثير مع الجهل . وقال عليه السلام طلب العلم فريضة على كل مسلم * فالعلم ضربان نظري وعملي فالنظري ماذا علم كفى ولم يحتج فيه بعده الى عمل كمعرفة وحدانية الله تعالى ومعرفة ملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ومعرفة السموات وما اشبه ذلك . والعملي ماذا عُلم لم يغن حتى يعمل به كمعرفة الصلاة والزكاة والجهاد والصوم والحج وبرّ الوالدين . والاعمال ثلاثة اضرب منها مايختص بالقلب ومنها مايختص بالبدن ومنها مايشارك فيه

البدن القلب . والعلم ايضاً اذا نظر اليه وهو مكتسب فاكتسابه عمل واذا نظر اليه وقد اكتسب وتصوّر في القلب خرج في تلك الحال عن ان يكون عملاً . ومن وجه آخر ضربان واجب وندب فالواجب يقال له العدل والندب يقال له الاحسان وهما المذكوران في قول الله تعالى : «ان الله يأمر بالعدل والاحسان» فالفرض والعدل تحري الانسان لما اذا عمله اثيب واذا تركه عوقب والندب والاحسان تحري الانسان لما اذا عمله اثيب واذا تركه لم يعاقب والانصاف من العدل والتفضل من البر والاحسان فالانصاف هو مقابلة الخير من الخير والشر من الشر بما يوازيه والتفضل والبر مقابلة الخير باكثر منه والشر بأقل منه . فالاحسان والتفضل احتياط في العدالة والانصاف ليؤمن به من وقوع خلل فيه وذلك انك اذا زدت في اعطاء ما عليك ونقصت في اخذ مالك فقد احتطت واخذت بالحزم كدفع زيادة زكاء الى الفقير وترك ما أُحل لك ان تتناول من مال اليتيم . فالعدالة ان كانت جميلة فالتفضل احسن منها ولذلك قال تعالى فيمن استوفى حقه فتحرى العدالة: «ولَمَن انتصر بعد ظلمه فاولئك ما عليهم من سبيل» وقال سبحانه بعده : «وأَن تعفوا اقرب للتقوى» . وقال عز وجل «ولا تنسُوا الفضل بينكم» . اشارة الى ان الاحسان حسن والتفضل

Digitized by Google

احسن وقال عز وجل « للذين احسنوا الحسنى وزيادة » فالانسان انما يكون محسناً متفضلاً بعد ان يكون عادلاً منصفاً . فامامن ترك مايلزمه ثم تحرى مالا يلزمه فانه لا يقال له متفضل ولا يجوز تعاطي التفضل الا لمن كان مستوفياً وموفياً لنفسه فأما الحاكم المستوفي والموفي لغيره فليس له الا تحري العدالة والنَّصَفَة(١) .

فصل

العلوم من حيث الكيفية ضربان تصور وتصديق فالتصور هو ان يعرف الانسان معنى الشيء صح عنده ذلك بدلالة او لم يصح كمن عرف الصلاة وشرائطها وان لم تثبت صحتها عنده بدلالة والتصديق هو ان يتصور الشيء ويثبت عنده بدلالة تقتضي صحته

والتصديق على ثلاثة اضرب اما بغلبة الظن وهو ان يكون عليه دلالة وقد يعترضها شبه توهنها او تبطلها قال الله تعالى : « اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون » . واما بعلم اليقين وهو ان يصير بحيث يعلم ويعلم انه يعلم ولا تعترضه شبه توهنه كالعلم مثلا بان ثلاثة وثلاثة ستة وانه لا يصح ان يكون اكثر من ذلك او اقل قال الله تعالى : « انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا » . واما بعين اليقين وهو

(١) النصفة محركة الانصاف

ان يرى بعقله الشيء ويعانيه ببصيرته في حال اليقظة والنوم وقد نبه الله تعالى على هذه الوجوه بقوله : « كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون كلا لو تعلمون علم اليقين لترونَّ الجحيم ثم لترونّها عين اليقين » * فاما التصورات المجردة فالعامة الذين قال الله تعالى فيهم: « ولو ردوه الى الرسول والى اولي الامر منهم لعلمه الذين يستنبطونه » . واما غلبة الظن فللعامة الذين مدحهم الله بقوله : «الذين يظنون انهم ملاقوا ربهم » * واما علم اليقين فللخاصة * واما عين اليقين ففي الدنيا للأنبياء ولبعض الصديقين . والى نحوه اشار النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : تنام عيني ولا ينام قلبي . وبقوله: اني ارى من خلفي كما ارى من قدامي . قال امير المؤمنين علي عليه السلام: لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً . وقال بعض الحكماء : علم اليقين يحصل للعقل بالفكر والذكر فان العقل بفكره اي ببحثه يدرك المعارف وبذكره يستحضرها اذا نسيها وغفل واشتغل عنها وبذهنه ينظر اليها دائمًا كما ننظر نحن الى محسوس غير غائب عن ابصارنا بلا حاجة الى بحث وطلب وتفكر وتذكر وكذلك قيل الانسان يعقل فينظر الى الحق بالفكر والملائكة دائمًا ينظرون اليه بالذهن من غير حاجة الى تفكر وطلب

فصل

للانسان في استفادة العلم وافادته ثلاثة احوال : حال استفادة فقط وحال استفادة ممن فوقه وافادة لمن دونه وحال افادة فقط وقلّ من يستحق ان يوجد مفيداً غير مستفيد ففوق كل ذي علم عليم الى ان ينتهي الامر الى علام الغيوب فقد نبه الله تعالى على الحاجة الى الاستفادة بما حكاه من قول موسى عليه السلام لصاحبه: «هل اتبعك على ان تعلمني مما عُلّمت رشدا» ونبه بما ذكر في قصة سليمان عليه السلام عن الهدهد بقوله : احطتُ بما لم تحط به علماً» . ان الكبير قد يفتقر الى الصغير في بعض العلوم فاذاً الانسان مادام حياً يجب ان لايخرج من كونه مستفيداً ومفيداً كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: الناس عالم ومتعلم وما سواهما همج

الباب الرابع والعشرون

في ان الغرض من العبادة تطهير النفس واجتلاب صحتها

لم يكلف الله الناس عبادته لينتفع هو تعالى بها انتفاع المولى باستعباد عبيده واستخدام خدَمه فان الله غنيٌّ عن العالمين . ولا ليؤذيهم فقد قال تعالى : « يريد بكم اليسر ولا يريد بكم

العسر» . بل كلفهم ليزيل انجاسهم وامراضهم النفسية فبذلك يمكنهم ان يحصلوا حياةً ابديةً وسلامةً باقيةً سرمدية فان من وُلد يكون ميتاً بالاضافة الى اصحاب الدار الآخرة وفاقداً للعين التي بها يعرفهم والسمع الذي به يسمع تحاورهم واللسان الذي به يخاطبونه ويخاطبهم والعقل الذي به يعقلهم فليس تلك الحياة والعين والسمع ما للانسان في الحياة الدنيا . وكيف يكون كذلك وقد نفى الله ذلك عن الكفار ويجعلهم امواتاً وصمّاً وبكماً وعمياً فان الانسان له قوة على تحصيل تلك الامور في ابتداء امره وان اهمل نفسه فاتت عنه تلك القوة فلا يمكنه بعد قبول ذلك كالفحم اذا صار رمادا فلا يقبل بعد ذلك نارا فمن استمرّ في كفره وفسقه وتمادى فيه صار اما ميتاً او مريضاً او اصمّ لا يقبل الشفاء ولذلك قال الله تعالى فيمن ثكل هذه القوة : «انك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصمّ الدعاء اذا ولّوا مدبرين وما انت بهادي العمي عن ضلالتهم» . وقال تعالى: «صمٌّ بكمٌ عميٌ فهم لا يعقلون» وقال تعالى : «في قلوبهم مرض ينظرون اليك نظر المغشي عليه من الموت . وقال تعالى: «انما المشركون نجسٌ» . وقال تعالى في المؤمنين : « لينذر من كان حيّاً» . وقال فيهم : «اولي الايدي والابصار» . فمن استفاد الحياة والصحة والطهارة قبل

Digitized by Google

ان تبطل عنه هــذه القوى اعني قبول ذلك فصار حيًّا سميعًا بصيرًا طاهرًا وحصل زادًا كما امره الله تعالى بقوله : « وتزوّدوا فان خير الزاد التقوى » · واهتدى بالدليل الموصوف بقوله تعالى « وانك لتهدي الى صراط مستقيم صراط الله الذي له ما في السموات وما في الارض الاَ الى الله تصير الامور » · وائتمر له تعالى بقوله : « سابقوا الى مغفرة من ربكم » · واقتدى بالموصوفين بقوله سبحانه : « يسارعون في الخيرات » · فجديرٌ ان يفلح فيحصل هذه السعادة كما قال الله تعالى : « لعلكم تفلحون »

الباب الخامس والعشرون

في بيان الامراض والانجاس التي لايمكن ازالتها الا بالشرع

كما ان في بدن الانسان عوارض واموراً موجودة عند الولادة او توجد حالاً فحالاً بحكمة تقتضي ذلك وهي تعد نجاسات لابدمن اماطتها كلها او اماطة فضولاتها وذلك كالسَّلَى (١) والسرَّة والقلفة والعقيقة الموجودة في الصبي عند الولادة وكالاوساخ والقمل والظفر وشعر العانة وشعر الابط كذلك في

(١) السلي على وزن الحصى الذي يكون فيه الولد

نفس الانسان عوارض هي نجاسات وامراض نفسانية يلزم اماطتها كالجهل والشره والعجلة والشح والظلم . ويدل على كون ذلك مخلوقا فيه وامره باماطته واماطة فضلاته ماذكر الله تعالى في مواضع من كتابه بقوله : « خُلق الانسان من عجل » فذكر انه مخلوق منه كما ترى . ثم امره ان ينحيه عن نفسه وان لا يستعين به فقال : « سأُريكم آياتي فلا تستعجلون » . وقوله تعالى : « انه كان ظلوماً جهولا » . ثم امره بالعلم والعدل في غير موضع من كتابه . وقوله تعالى : « وأُحضرت الانفس الشحَّ » . ثم قال : « ومَنْ يوقَ شحَّ نفسه فاولئك هم المفلحون » . فامره باتقاء الشح مع احضاره اياه . وقوله تعالى : « ان الانسان خُلق هلوعا اذا مسه الشرُّ جزوعا واذا مسه الخير منوعا » . ووصفه بالكفور والقتور في قوله : « وكان الانسان كفورا » . وقوله تعالى : « قل لو انتم تملكون خزائن رحمة ربي اذاً لأَمسكتم خشية الانفاق وكان الانسان قتورا » . فأَدخل عليه كان تنبيها على ان ذلك فيه غريزي موجود قبل لا هو شيء طاريء عليه . وقوله تعالى « وكان الانسان اكثر شيءٍ جدلاً » . ثم نهى عن اكثر الجدال فالانسان يحتاج ان يستعمل هذه القوى في الدنيا كما يجب وفي وقت ما يجب وبقدر ما يجب وان يميط فضولاتها قبل خروجه من

Digitized by Google

الدنيا حسب ماوردت به الشريعة فانه متى لم يتطهر من النجاسة ولم يُزل امراض نفسه لم يجد سبيلا الى نعيم الآخرة بل ولا الى طيب الحياة الدنيا وذلك ان من تطهر تجلى عن قلبه الغشاوة فيعلم الحق حقاً والباطل باطلا فلا يشغله الا مايعنيه ولا يتناول الا مايعنيه فيحيي حياة طيبة كما قال تعالى: «فلنحيينّه حيلة طيبة» ولا تصير قنياته في الدنيا وبالاً عليه وعذاباً كما قال الله تعالى في الكفار: «فلا تعجبك اموالهم ولا اولادهم انما يريد لله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق انفسهم وهم كافرون» · ويصير قلبه اذا تطهر مقرّ السكينة والارواح الطيبة كما وصف لله تعالى المؤمنين بقوله: «هو الذي انزل السكينةَ في قلوب المؤمنين ليزدادوا ايماناً مع ايمانهم» · وعرف الطريق التي بها التوصل الى الجنة المأوى ومصاحبة الملأ الاعلى في مقعد صدق عند مليك مقتدر فيسارع في الخيرات ويسابق الى مغفرة من ربه · ومتى بقيت نجاسته وتزايدت صار قلبه مقرّ الشبه والآثام كما قال الله تعالى: «هل أُنبئكم على من تَنَزَّلُ الشياطين تنزل على كل افّاك اثيم» ولايجد سبيلا الى سعادة الدار الآخرة كما قال الله تعالى: «ايطمع كل امرئ منهم ان يدخل جنة نعيم كلاّ انا خلقناهم مما يعلمون» فنبه على انه لايصلح لجنته مالم تطهر ذاته عن

اشياء هي مخلوقة فيها وعلى هذا دلّ قوله تعالى : « ما كان الله ليذر المؤمنين على ما انتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب » . فحق الانسان ان يراعي هذه القوى فيصلحها ويستعملها على الوجه الذي يجب وكما يجب ليكون كمن وصفه الله تعالى بقوله : « الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلامٌ عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون » . وقد يقع للانسان شبهة في امر هذه النجاسات فيقول اترى ان ذلك من عند غير الله فان كان من غيره فمن اين يوجده ومن اين منبعه وان كان منه فما المعنى في ان اوجده في الانسان ثم امره بان يزيله فيقال ما من شيء اوجده الله او امكن من ايجاده الا وفيه حكمة ومنفعة وان لم يعرف ذلك البشر لكن من الاشياء ما نفعه في وقت مخصوص او اذا كان على قدر مخصوص ثم اذا استغني عنه او زاد على قدر ما يحتاج اليه يجب ان يزال وذلك اذ تؤمل ظاهر اذ من المعلوم ان السلا والسرَّة يحتاج اليهما لصيانة الولد في وقت ثم يستغنى عنهما فيكون ابقاؤهما بعد نجاسة والشعر والظفر يحتاج اليهما اذا كانا على حد واذا زادا يجب اماطتهما

الباب السادس والعشرون

في القوى التي يجب ازالة امراضها وانجاسها والمعاني التي تحصل منها

ازالة النجاسة واجتلاب الطهارة المذكورة في قوله تعالى: (انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيرا) واكتساب الصحة واماطة المرض المذكور في قوله تعالى: (في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً) يكون باصلاح القوى الثلاثة التي هي دواعي الانسان في متصرّفاته وهي قوة الشهوة وقوة الحمية وقوة الفكر فباصلاح قوة الشهوة تحصل العفة فيحترز بها من الشره واماتة الشهوة ويُتحرى المصلحة في المأكول والمشروب والملبوس والمنكوح وطلب الراحة وغير ذلك من اللذات الحسية وباصلاح قوة الحمية تحصل الشجاعة فيحترز من الجبن والتهور والحسد ويتحرى الاقتصاد في الخوف والغضب والأنفة وغير ذلك . وباصلاح قوة الفكر تحصل الحكمة حتى يحترز من البله والجَربَزَة(١) ويتحرى الاقتصاد في تدبير الامور الدنيوية . وليس نعني بالحكمة ههنا العلوم النظرية وانما نعني بها الحكمة

(١) الجربز بالضم الخب الخبيث معرّب كربز والمصدر الجربزة . والخب بالفتح والكسر الرجل الخدّاع

العملية التي يتحرى بها المصالح الدنيوية وباصلاح هذه القوى يحصل في الانسان قوة العدالة فيقتدي بالله تعالى في سياسة نفسه وسياسة غيره فنفس الانسان معادية له كما قال تعالى : (ان النفس لأَمارة بالسوء الا ما رحم ربي) وقال النبي صلى الله عليه وسلم اعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك فمن ادَّبها او قمعها امِنَ ظلمها والى هذا اشار الله تعالى بقوله : (ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضما) اي لا يخاف ان تظلمه نفسه الشهوية فالاعمال الصالحة حصن منها لقول الله تعالى : (ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر)

الباب السابع والعشرون

في كون الانسان مفطور على اصلاح النفس

الانسان مفطور في اصل الخلقة على ان يصلح افعاله واخلاقه وتمييزه وعلى ان يفسدها وميسَّرٌ له ان يسلك طريق الخير والشر وان كان منهم من هو بالجملة الى احدهما اميل · وعلى تمكنه من السبيلين دلَّ الله بقوله : (انا هديناه السبيل اما شاكرًا واما كفورا) وقوله تعالى: (وهديناه النجدين) اي عرَّفناه الطريقين وكما انه مفطور على اكتساب الامرين في ابتدائه مفطور على انه

اذا تعاطى احدهما ان خيراً وان شراً الفه فاذا الفه تعوّده واذا تعوده تطبع به واذا تطبع به صار له طبعاً وملكة فيصير فيه بحيث لو اراد ان يتركه لم يمكنه كما قيل:

«وتأبى الطباع على الناقل»

ويكون مثله كمثل شجر نبتَ فاعوجّ سهل في الابتداء تثقيفه وتسويته بخيط يشد فيه او بخشب يفرش بجنبه فيسدد به. ثم اذا غلظ واشتد مستوياً امن ان يعوج بل لا يمكن تعويجه وان ترك حتى يعوجّ فيصلب على عوجه لم يمكن بعد تثقيفه كما قال الشاعر:

يقوّم بالثقاف العود لدناً * ولا يتقوّم العودُ الصليبُ

وعلى هذا الوجه قال الله تعالى: (ان الحسنات يذهبن السيئات) وقال تعالى: (ويدرأون بالحسنة السيئة) وقد توهم قوم ان لا اثر للتأديب والتهذيب فان الناس مجبولون على طبائع لا سبيل الى تغييرها فمنهم اخيار بالطبع ومنهم اشرار بالطبع واستدلوا بقول الله تعالى: (قل كلٌّ يعمل على شاكلته. وقوله تعالى: فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله) فنبه الله بهذا المعنى على ان كل انسان على حال لا سبيل الى تغييرها. وقول النبي صلى الله عليه وسلم كلٌّ ميسر لما خلق له. وقوله عليه السلام:

فرغ ربكم من الخَلق والخُلق والرزق والاجل . وبقوله تعالى: (ولقد اصطفيناه في الدنيا وانه في الآخرة لمن الصالحين) وقوله: (انا اخلصناهم بخالصة ذكرى الدار وانهم عندنا لمن المصطفين الاخيار) وقوله: (ولقد اخترناهم على علم على العالمين) والناس وان تفاوتوا في اصل الخلقة فما احد الا وله قوة على اكتساب قدر ما من الفضيلة ولولا ذلك لبطلت فائدة الوعظ والانذار والتأديب

الباب الثامن والعشرون

في سبب رذيلة الانسان وتأخره عن الفضيلة

سبب تأخر الانسان عن الفضيلة لا يخلو من اوجه : اما ان يكون نقصاً في اصل خلقته وعجزاً مركباً في جبلته يتقاعد به عن تحصيل القوة وجمع الآلة التي يتوصل بها الى السعادة كمن تضعف نحيزته (١) او لا يفضل عن طلب معايشه الضرورية في وقته او لا يجد هادياً يرشده فمن كان كذلك فمعذور لقوله تعالى: (لا يكلف الله نفساً الا وسعها) * واما انه غير عاجز عن ذلك لكن لم يساعده على بلوغه عمره فذلك قد وقع اجره

(١) النحيزة الطبيعة

Digitized by Google

على الله كما قال الله تعالى : (ومن يخرج من بيته مهاجرًا الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع اجره على الله) * واما ان يتفق له مُرَبٍّ ومعلم مُضِلٌّ فيضله عن الطريق وهذا ان لم يتمكن من الاهتداء بمن يرشده ويسدده يكون معذورًا والأثم فيما يرتكبه لمن قد اضله لا له كما قال الله تعالى في المضلين : (ليحملوا اوزارهم كاملة يوم القيامة ومن اوزار الذين يضلونهم بغير علم الاَ ساءَ ما يزرون) . وان تمكن بعد ممن يهديه فلم يهتد به يكون هو ومضله مشتركين في الأثم كما قال الله تعالى : (احشروا الذين ظلموا وازواجهم) * واما ان يكون ضلاله من جهة نفسه لا من جهة شيء مما تقدم وذلك هو المتوعَّد بالعذاب فمن ازاح الله علته بالفهم والكفاية والعلم الناصح فرغب عن الاهتداء وترك طريقة الرشاد يكون كمن وصفه الله تعالى بقوله : (واتلُ عليهم نبأَ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين) وبقوله : ولقد اريناه آياتنا كلها فكذَّب وأَبى) واكثر منه عقوبة من استفاد العلم وعرف الحق وسلك من طريق الخير مراحل ثم ارتد عنها راجعاً كمن وصفه الله بقوله : (ان الذين ارتدوا على ادبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سوَّل لهم واملى لهم) وبقوله : ومن يرتدد منكم عن دينه ... الآية

الباب التاسع والعشرون

في احوال الناس ومنازلهم وفي تعاطي الافعال المحمودة والمذمومة وطرقها

الناس في اقامة العبادات وتحري الخيرات على اربعة اضرب : الاول مَنْ لهُ العلم بما يجب ان يفعل وله مع ذلك قوة العزيمة على العمل به وهم الموصوفون بقوله عزَّ وجل في غير موضع : (الذين آمنوا وعملوا الصالحـات طوبى لهم وحسن مآب) * الثاني من عدمهما جميعاً وهم الموصوفون بقول الله تعالى : (ان شرَّ الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون . وقوله : ان هم الا كالانعام بل هم اضل سبيلا) * الثالث . مَنْ له العلم وليس له قوة العزيمـة على فعله فهو في مرتبة الجاهل بل هو شرٌّ منه كما روي ان حكيماً سئل متى يكون العلم شرًّا من الجهل فقال ان لا يعمل به . ورُوي عن امير المؤمنين علي كرَّم الله وجهه انه قال : من كانت ضلالته بعد التصديق بالحق فهو بعيد من المغفرة * الرابع مَن ليس له العلم لكن له قوة العزيمة فهذا متى انقاد لاهل العلم وعمل بقولهم انجح في فعله وصار من الموصوفين بقوله تعالى « اولئك مع الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين

وحسن اولئك رفيقا »

والافعال الجميلة والقبيحة يتقوى الانسان فيها بتكريرها مرارًا كثيرة وزمانًا طويلاً وقتًا بعد وقت في اوقات متفاوتة فان من فعل ذلك في شيء اعتاده ولهذا اعتاده تخلق به فالحذق في الصناعة كالكتابة مثلاً يكون باعتياد فعل من هو حاذق في الكتابة . والافعال التي تحصل عن الاخلاق بعد حصولها هي باعيانها الافعال التي يتعاطاها المتخلق بها حتى تصير خلقًا فحق الانسان ان يتدرب بفعل الخير فان من تعوّد فعلاً صار له ملكة كالصبي قد يلعب بتعاطي صناعة فيؤدي لعبه بها الى ان يتعلمها

فصل

العبادات تكون محمودة اذا تعاطاها الانسان طوعًا واختيارا لا اتفاقا واضطرارا ودائمًا لا في زمان دون زمان ولاجل ان ذاتها حسنة لا لأجل غيرها فمن اتاها على هذا الوجه فهو الموصوف بقوله تعالى : « واخلصوا دينهم لله فاولئك مع المؤمنين وسوف يؤتي الله المؤمنين اجرًا عظيما » . وقال النبي صلى الله عليه وسلم اخلص يكفك القليل من العمل ولا يرضى تعالى الا الاخلاص كما قال الله تعالى : « الا لله الدين الخالص » . فان من فعل خيرًا نحو ان يصلي لانه اتفق اجتماعه مع المصلين فساعدهم لو

اكره ان يصلي او صلاها في شهر رمضان مثلاً دون سائر الاوقات او لاجل ان ينال بها جاهاً او مالاً فليس ذلك مما يستحق بها محمدة . وكذا من ترك قبيحا اما اتفاقا او اضطرارا او خوفاً او في زمان دون زمان او لأن ينال بذلك امراً دنيوياً فليس بمحمود ولهذا قال الله تعالى : « الذين ينفقون اموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما انفقوا مناً ولا اذى لهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . تنبيهاً على ان من لم ينفق ماله هكذا ويعلوه خوف من الفقر وحزن على الانفاق فلا يحصل له بذلك فضيلة ثم قال تعالى : « يا ايها الذين امنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والاذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب .. الآية

الباب الثلاثون

في ارتداد الناس من طريق الخير والشر

للانسان فيما يتحراه من الخير والشر حالتان : حالة يتمكن فيها من الارتداد على ادباره فيما يتعاطاه ان خيراً وان شراً وذلك قبل ان يمعن في سيره ويتناهى في مره . وحالة يتعذر عليه الارتداد على أدباره بل لا يكون له سبيل الى الرجوع وذلك اذا

امعن في سيره وتناهى في ممره . وذلك ان كل من كان متعاطياً لفعل خير فتكاسل عنه ومتعاطياً لشرٍّ فلم يقلع عنه اورثه كسله ضيق صدر بتحري الخير كما قال الله تعالى : « ومن يُرد ان يُضله يجعل صدره ضيقاً حرجا » . وانشراح صدره بفعل الشر كما قال تعالى « افمن زُين له سوءُ عمله فرآه حسنا » . فان استمر على ذلك ولم يقلع اورثه ذلك رَيناً على قلبه كما قال الله تعـالى : « كلاّ بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » . فان تمادى في ذلك واستمر اورثه ذلك غشاوة كما قال تعالى : « فاغشيناهم فهم لا يبصرون » فان ازداد اورثه ذلك طبعاً وختماً كما قال تعالى : « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى ابصارهم » . وقوله : « أفرأيت من اتخذ آلهه هواه واضله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله افلا تذكرون » . فان ازداد صار ذلك قُفلاً كما قال الله تعالى : « افلا يتدبرون القرآن ام على قلوب اقفالها » . ثم اذا تمادى صار قلبه موتاً قلّما ترجى له حياة فلا تنفعه الايات والنذر كما قال الله تعالى : « انك لا تُسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاءَ اذا ماينذرون » . ومن حيث ان الله تعالى علم من احوال من بلغ هذا المبلغ انه لا يتوب ولا يؤب قال الله تعالى : « ان الذين كفروا بعد ايمانهم ثم ازدادوا كفرا لن تقبل

توبتهم واولئك هم الضالون» فلم يرد تعالى انهم اذا تابوا لن تقبل توبتهم بل نبه بذلك على انهم لا يتوبون فتقبل توبتهم فدل منتهى الفعل على مبدأه وهذا من كلامهم كقول الشاعر

«ولا يرى الضبُّ بها ينجحر» (١)

اي ليس بها ضب فينجحر فنفي انجحار الضب وهو في الحقيقة نفي لوجود الضب بها وعلى هذا دل قوله تعالى: «ان الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرًا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا» . اي لم يكونوا ليتوبوا فيغفر لهم وعلى هذا قال تعالى: «انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب» . تنبيهاً على ان هؤلاء هم الذين يرجى لهم التوبة . وعلى هذه الجملة المذكورة قال النبي صلى الله عليه وسلم: اذا اذنب الرجل نُكتت على قلبه نكتة سوداء فاذا اذنب ثانياً نكتت أُخرى فلا يزال كذلك حتى يصير قلبه كلون الشاة الرمداء . وفي خبر آخر: الذنب على الذنب حتى يسودّ القلب فلا تُرجى له الانابة . وكذا حال الانسان فيما يتعاطاه من فعل الخير فان من صبر في اقتراف الحسنة اورثه صبره حسناً كما

(١) جحر الضب دخل جحره وهو كل شيء تحتفره السباع والهوام بأنفسها . وجحر فلان الضبَّ ادخله فيه فانجحر

Digitized by Google

وصف الله به الصابرين في مواضع من كتابه قال تعالى: « ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً » . فان استمر في ذلك بعض الاستمرار اهتز ونشط وانشرح به صدره كما قال تعالى: « فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام » . فان دام على ذلك امتحن وتطهر قلبه كما قال الله تعالى: « اولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى » . ويكون كما وصفه في هذه السورة: « ولكن الله حبّب اليكم الايمان وزيّنه في قلوبكم وكرّه اليكم الكفر والفسوق والعصيان اولئك هم الراشدون فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم » . فان تزايد في فعله انضم اليه من الله تعالى باعث يهزه وداع يبعثه عليه كما قال الله تعالى: « هو الذي انزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا ايماناً مع ايمانهم » . فحق الانسان ان لا يسامح نفسه في الاجتهاد وان لا يخلّ بخير تعوّده ولا يرخص لها في شرّ ارتكبه فتعاطي صغير الذنب يفضي الي ارتكاب الكبير والإخلال بقليل الخير يؤدي الى الإخلال بكثيره كما قال الشاعر:

وازرق الفجر يبدو قبل ابيضه

واول الغيث قطرٌ ثم ينسكب

وقد نبه الله تعالى على ذلك بقوله: « ان الذين ارتدوا على

ادبارهم من بعد ماتبين لهم الهدى الشيطان سوّل لهم واملى لهم ذلك بانهم قالوا للذين كرهوا مانزّل الله سنطيعكم في بعض الامر» . فتبين ان قولهم للذين كرهوا مانزل الله ادّى بهم الى الارتداد على ادبارهم وقال تعالى : « ان الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان انما استزلّهم الشيطان ببعض ما كسبوا » . فنبه على ان بعض ما كسبوا ادّى بهم الى الانهزام فالمتدرب في فعل الخير المتقوي فيه يصير بحيث يكون له من الله تعالى واقية تحفظه عن الافعال القبيحة وتحثه على الافعال الحسنة وهذا معنى العصمة وعلى ذلك نبه الله تعالى في صفة اوليائه بقوله : « اولئك كتب في قلوبهم الايمان وايدهم بروح منه » . وقال تعالى : « رضي الله عنهم ورضوا عنه اولئك حزب الله الا ان حزب الله هم المفلحون » . والمتدرب بفعل الشر المتقوي فيه قد يصير بحيث يكون له بما ارتكبه من القبائح باعث يبعثه على الافعال القبيحة ويحثه على الافعال السيئة ويسدعليه طرق الافعال الحسنة وعلى ذلك نبه الله تعالى بقوله في صفة اعدائه « انا جعلنا في اعناقهم اغلالاً فهي الى الاذقان فهم مقمحون وجعلنا من بين ايديهم سدّاً ومن خلفهم سدّاً فأغشيناهم فهم لا يبصرون » . وقال تعالى: « ومن يعشُ عن ذكر الرحمن نقيّض له شيطانا فهو له قرين

Digitized by Google

وانهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون انهم مهتدون » · وقال تعالى : « انا جعلنــا الشياطين اولياء للذين لا يؤمنون » · وقد نسب الله هداية العبد وضلاله جميعاً الى نفسه من حيث انه جعل خلقه وطبعه بحيث اذا تعــاطى فعلا ان خيراً وان شراً فاستمر عليه يصير ذلك طبعاً له ملازماً لا يرجع عنه ولم ينسب المنع من الايمان الي نفسه الا بعد ذكر ما كان من اساءة العبد نحو قوله: (انا جعلنا الشياطين اولياء للذين لا يؤمنون) · فخصّ الذين لا يؤمنون بان جعل الشيطان اوليائهم وقال تعالى : (ومن الناس من يجــادل في الله بغير علم ويتّبع كل شيطان مريد كُتب عليه انه مَن تولاه فانه يضله ويهديه الى عذاب السعير · وقال تعالى: ان الذين لا يؤمنون بالآخرة زينّا لهم اعمالهم فهم يعمهون) · قال الشاعر

زُين في عينك القبيح كما * زُين في عين غيرك الحسنُ

الباب الحادي والثلاثون

في قدر ما في الوسع من اكتساب السعادة

الانسان لما كان على هيئة العالم اوجد فيه كلّ ما اوجد في العالم وكما ان في العالم اشياء لا يتأتى اصلاحها وحيوانات لا يمكن

تأديبها كذلك في الانسان قوى لا يتأتى اصلاحها وتهذيبها وكان له مع ذلك مثبطات عما أمر به وتقصير عما كُلِّف ولهذا قال الله تعالى: (قُتل الانسانُ ما اكفره من اي شيء خلقه . الى قوله: كلا لما يقض ما امره) . فنبه على ان الانسان لا يكاد يخرج من دنياه وقد قضى وطره ولذلك يجب على الانسان ان يجتهد في اداء ما امكنه ويطهر نفسه بقدر ما يتيسر له والرغبة الى الله تعالى في تكفير ما قصر فيه ويتحقق انه اذا فعل ما امكنه فقد اعذر لقوله تعالى: (لا يكلف الله نفساً الا وسعها) . فاذا فعل ما امكنه يكون قد ترشح ان يزيل الله عنه باقي السيئات كما قال الله تعالى: (يا ايها الذين آمنوا توبوا الى الله توبة نصوحا عسى ربكم ان يكفِّرعنكم سيئاتكم) وقال تعالى: (ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفِّر عنكم سيئاتكم ونُدخلكم مُدخلاً كريما) . ولهذا امرنا تعالى ان نديم الدعاء بقوله (ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا او اخطأنا) . وقال تعالى: (والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين ايديهم وبايمانهم يقولون ربنا اتمم لنا نورنا) . فأمرنا ان نرغب اليه في اتمام ما قصرنا عن اكتسابه وقوله (والذي جاء بالصدق الى قوله: ليكفّر الله عنهم اسوأ الذي عملوا ويجزيهم اجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون) . ولهذه الجملة قال جعفر الصادق رضي الله عنه: من زعم انه يصل الى

Digitized by Google

الحق ببذل المجهود فهو متعنٍّ ومن زعم انه يصل اليه بغير بذل المجهود فهو متمنٍّ * ولقصور الانسان عن تزكية نفسه بالتمام قال صلى الله عليه وسلم: ما احدٌ يدخل الجنة بعمله قيل ولا انت يا نبي الله قال ولا انا الاّ ان يتغمدني الله برحمته. وقال تعالى تنبيهاً على هذا المعنى (ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكي منكم من احد ابدا ولكن الله يزكّي من يشاء). وبيان قصور الانسان عن تزكية نفسه على التمام هو ان الانسان حيوان ناطق متفكر والحيوان جوهرٌ متنفس حسّاس والمتنفس جوهر متغذ متربٍّ لاقوام له الا بالغذاء كما قال الله تعالى (وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين فالانسان ما دام في الدنيا لا ينفك عن مشاركة البهائم والسباع لكونه حيوانا محتاجا الى ما تحتاج اليه. وعن مشاركة الاشجار والنبات لكونه متنفسا محتاجا الى ما تحتاج اليه. والانسان اذا لم يقتحم العقبة ويفك الرقبة وما لم يتعرَّ عن الحاجات الدنية لم يأمن شياطين الانس والجن وكيف يأمن وقد قال الله تعالى. (وكذلك جعلنا لكل نبيّ عدوًّا شياطين الانس والجن يوحي بعضهم الى بعض زخرفَ القول غرورا).

قال بعض المفسرين: ان ابراهيم لما سأل الله تعالى فقال: (رب ارني كيف تحيي الموتى قال اوَلم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن

قلبي) . انما سأله ان يريه الحياة المتعرية عن العوارض العارضة للحيوانات فقال اوَلم تؤمن اي اوَلم تتحقق قال بلى ولكن ليطمئن قلبي اي ليتصور لي كيفيةُ الطمأنينة اي تبري النفس من الشره والحرص والامل والافتخار واعاين الحالة المذكورة في قوله تعالى « ياايتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي) . فأَمره ان يأْخذ اربعة طيور . غراباً وهو المخصوص بالحرص والشره . ونسراً وهو المخصوص بالأَمل وطاووساً وهو المخصوص بالافتخار . وديكاً وهو المخصوص بالشبق فأَمره ان يقطّعهن ويصرهنّ اي يدعوهن ولما فعل ذلك صرن اليه عاجلا فنبه الله تعالى بذلك على ان الانسان وان اجتهد كلّ الاجتهاد في حذف هذه المعاني عن نفسه وتطهير ذاته منها لن يتطهر مادامت البشرية الدنيوية حاصلة له ولن تحصل له الطمأْنينة المطلوبة . فاما مايدعيه قوم ان من الناس مَن قد تجرد عن هذه الخصائص حتى يستغني عن الطعام والشراب ويصير بحيث لاتعتريه الاخلاق البهيمية فهذا ان حصل في بعض الناس فان ذلك يكون حينئذٍ ملكا متشبحاً يسمى باسم الانسان على سبيل الاشتراك في الاسم فيكون متبدل الجوهر

تبدل جوهر النار اذا صارت بردًا وسلامًا وتبدل الدُعموص (١) اذا صار ضفدعًا والدود اذا صار فراشا وكثيرًا من النبات اذا صار جوهرا آخر وحيوانا كدودة القز وليس ذلك بمنكر في القدرة الالهية. وهو حينئذٍ خارج عن الاستصلاح للافعال التي خلق الانسان لاجلها مستخلفا في الارض مستعمرًا فيها

فصل

اعلم ان من هاجر الى الله وجاهد في سبيله فحقيق ان يهديه الى سبيله كما وعد به في قوله تعالى: «والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا» . وقال: والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا الى الى قوله: اولئك هم المؤمنون حقًا» . والهجرة العظمى هجران فضول الشهوات والمجاهدة الكبرى مدافعة الهوى كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: جهادك في هواك . فمن هدي الى سبيله وامعن في مسيره مسارعا في الخيرات ومسابقا الى مغفرة ربه فحقيق ان يصير من الابدال ومعنى الابدال هم الذين يبدّلون من اخلاقهم وافعالهم الذميمة اخلاقًا وافعالاً حميدة فيجعلون بدل الجهل العلم وبدل الشح الجود وبدل الشره العفة وبدل الظلم العدالة وبدل الطيش التؤدة وعلى ذلك دل قوله تعالى: «والذين لايدعون

---

(١) الدعموص بالضم دويبة توجد في الغدران

مع الله الهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرّم الله الا بالحق الى قوله: يبدّل الله سيئاتهم حسنات» . والانسان اذا صار من من الابدال فقد ارتقى الى درجة الاحباب الذين عناهم الله تعالى بقوله : « فسوف ياتي الله بقوم يحبهم ويحبونه » . فيجعله مهيباً في البشر معظّم القدر عند كل احد بل قد يبلغ مبلغاً تخضع له البهائم والسباع والوحوش والحشرات كخضوعها لسليمان بن داود عليهما السلام ويصير الحديد له ليناً كما لان لنبيه داود عليه السلام وتصير النار له اذا خاضها برداً وسلاما كما صارت على ابراهيم عليه السلام وتنقاد له الريح فيركبها كركوب سليمان وتسخر له المياه فيمشي عليها كتسخيرها للخضر عليه السلام ويكلمه النبات والمعادن والافلاك والنجوم فتقفه على منافعها وتخبره بسرائرها كمكالمتها لادريس عليه السلام* روي انه اذا احب الله عبداً البسه صورة من صورته ونفخ فيه روحاً من روحه حتى ينقاد له كل حجر ومدر ويتواضع له كل طائر وسبع بل قد يخصه بكرامات لا يمكن ان يطلع على معرفتها غيرُ من خُصَّ بها كما قال النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه : اعددتُ لعبادي الصالحين مالا عينٌ رأَت ولا اُذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر . وقال تعالى اشارةً لهذا المعنى . « فلا تعلم نفس ما اُخفي لهم من قرة اعين»

Digitized by Google

وهذه الاحوال كما تكون للانبياء فقد تكون للاولياء المخصوصين بالكرامة وليس ذلك بمستبدع ولا منكر في قدرة الله تعالى ولا بمناف في حكمته كما ظن بعض المتكلمين ان ذلك اذا اظهره على غيرانبيائه لا يؤمَنُ ان يُفتن به الناسُ وانه يؤدي الى اشتباه امر المعجزة على الكافة فان احكم الحاكمين لا يؤتي هذه المكرمة الا من هو اهلها كما نبه عليه سبحانه بقوله · « الله اعلم حيث يجعل رسالته · ومن بلَّغه هذه المنزلة فقد آتاه لاشك من العلم والحكمة قدر ما يهديه ويؤدبه وعرف ما يمسكه فيستقيم كما أُمر فيه فيعرف قدره ولا يتعدى طوره

الباب الثاني والثلاثون

في اثبات المعاد وفضيلة الموت وما يحصل بعده من السعادة

لم ينكر المعاد والنشأة الآخرة الا جماعة من الطبيعيين اهملوا افكارهم وجهلوا اقدارهم وشغلهم عن التفكر في مبدأهم ومنشأهم شغفهم بما زين لهم من حب الشهوات المذكورة في قوله تعالى : « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوَّمة والانعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا » · واما من كان سوياً ولم يمش مكباً على

وجهه لكونه : « كالانعام بل هم اضل سبيلا » وتأمل اجزاء العالم علم ان افضلها ذوات الارواح وافضل ذوات الارواح ذوو الارادة والاختيار في هذا العالم وافضل ذوي الارادة والاختيار الناظر في العواقب وهو الانسان فيعلم ان النظر في العواقب من خاصية الانسان وانه لم يجعل تعالى هذه الخاصية له الاّ لأَمر جعله له في العقبى والاّ كان وجود هذه القوة فيه باطلا فلو لم يكن للانسان عاقبة ينتهي اليها غير هذه الحياة الخسيسة المملوَّة نصباً وهماً وحزناً ولا يكون بعده حال مغبوطة لكان اخس البهائم احسن حالا من الانسان فيقتضي ان تكون هذه الحكم الالهية والبدائع الربانيـــة التي اظهرها الله تعالى في الانسان عبثاً كما نبه الله عليه بقوله تعالى : « افحسبتم أَنما خلقناكم عبثاً وانكم الينا لا ترجعون » فان احكام بنية الانسان مع كثرة بدائعها وعجائبها ثم نقضها وهدمها من غير معنى سوى ما تشاركه فيه البهائم من الاكل والشرب والسفاد مع ما يشوبه من التعب الذي قد أُغني عنه الحيوانات سفهٌ « كالتي نقضت غزلهـــا من بعد قوة انكاثاً » تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً . وما اظهر عند من القى عن مناكبه دثار العماية صدق امير المؤمنين عليّ عليه السلام في قوله : الدنيا دار ممر لا دار مقر فاعبروها ولا تعمروها

Digitized by Google

وقد خلقتم للابد ولكنكم تنقلون من دار الى دار حتى يستقر بكم القرار . وكثير من الجهال اغتروا بقوم وصفوا بوفور العقل في امور الدنيا حيث انكروا امر الآخرة فقالوا لو كان ذلك حقاً لم ينكره امثالهم مع وفور عقولهم وكثرة فهمهم ولم يعلموا ان العقل وان كان جوهراً شريفاً فانه لا يتوجه الا حيث وُجّه ولا غناء له الا فيما اليه صُرف فاذا صُرف الى امور الاخرة احكمها واذا صرف الى امور الدنيا قبلها وعكف عليها واخل بما سواها فتقصر بصيرته حينئذ عن الامور الاخروية كما نبه الله عليه في غير موضع من كتابه وقد تقدم القول فيه

فصل

اعلم ان الموت المتعارف الذي هو مفارقة الروح للبدن هو احد الاسباب الموصلة للانسان الى النعيم الابدي وهو انتقال من دار الى دار كما روي انكم خلقتم للابد لكنكم تنقلون من دار الى دار حتى يستقر بكم القرار فهو وان كان في الظاهر فناء واضمحلالاً فهو في الحقيقة ولادة ثانية قال الشاعر في ذلك

تمخضت المنون له بيوم … اتى ولكل حاملة تمام

فانه جعل للمنون حملا كحمل المرأة وتمخضا كتمخضها وولادة كولادتها تنبيهاً على انه احد اسباب الكون . قال بعضهم

6882
Digitized by Google

الانسان ما دام في دنياه جار مجرى الفرخ في البيضة فكما ان من كمال الفرخ تفلق البيض عنه وخروجه منه كذلك من شرط كمال الانسان مفارقة هيكله ولولا هذا الموت لم يكمل الانسان فالموت اذاً ضروري في كمال الانسانية ولكون الموت سبباً للانتقال من حال اوضع الى حال اشرف وارفع سماه الله تعالى توفياً وامساكا عنده فقال تعالى: « الله يتوفى الانفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت و يرسل الاخرى الى اجل مسمى » ولهذا تقول العرب استأثر الله بفلان ولحق بالله ونحو ذلك من الالفاظ ولاجل ان الموت الحيواني انتقال من منزل ادنى الى منزل اعلى احبه من وثق بماله عند الله ولم يكره هذا الا احد رجلين احدهما من لا يؤمن بالاخرة وعنده ان لا حياة ولا نعيم الا في الدنيا كمن وصفهم الله تعالى بقوله « ولتجدنهم احرص الناس على حياة ومن الذين اشركوا يود احدهم لو يعمر الف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب ان يعمر» . وقال بعض من هذه طريقته شعراً في هذا المعنى

خذ من الدنيا بحظ قبل ان تنقل عنها

فهي دار ليس تلقى بعدها اطيب منها

والثاني يؤمن به ولكن يخاف ذنبه فاما من لم يكن كذلك

فانه يحبه ويتمناه كما احبه الصالحون وتمنوه· وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال: من احب لقاءَ الله احب الله لقاءه وقال تعالى: (فتمنوا الموت ان كنتم صادقين) تنبيهاً على ان من يكون متحققاً بحسن حاله عند الله لم يكره الموت · فالموت هو باب من ابواب الجنة منه يتوصل اليها ولو لم يكن موت لم تكن الجنة ولذلك منّ الله تعالى به على الانسان فقال: (الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم ايكم احسن عملا) فقدّم الموت على الحياة تنبيهاً على انه يتوصل به الى الحياة الحقيقية وعدّه علينا في نعمه فقال: (كيف تكفرون بالله وكنتم امواتاً فاحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم) فجعل الموت انعاماً كما جعل الحياة انعاماً لانه لما كانت الحياة الاخروية نعمة لا وصول اليها الا بالموت فالموت نعمة لان السبب الذي يتوصل به الى النعمة نعمة ولكون الموت ذريعة الى السعادة الكبرى لم يكن الانبياء والحكماء يخافونه حتى قال امير المؤمنين عليّ بن ابي طالب عليه السلام: والله ما ابالي اقع على الموت او يقع الموت عليّ · وكانوا يتوقعونه ويرون انهم في حبس فينتظرون المبشر باطلاقهم· وعلى هذا روي الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر · وقيل انه لما مات داود الطائي سمع هاتف يقول: أُطلق داود من السجن · قال الله تعالى: (ولئن متم او قتلتم لالى

الله تحشرون) تنبيهاً على ان الموت سبيل الحياة المستفادة عند الله تعالى . وقال تعالى : (ولئن قتلتم في سبيل الله او متم لمغفرة من الله ورحمة خيرٌ مما يجمعون) وقال تعالى : (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله امواتاً بل احياء عند ربهم يرزقون فرحين .. الآية) وعلى هذا نبه الله تعالى بقوله : (ثم انشأناه خلقاً آخر فتبارك الله احسن الخالقين ثم انكم بعد ذلك لميتون ثم انكم يوم القيامة تبعثون) فنبه على ان هذه التغيرات خلقٌ احسن فنقض هذه البنية لاعادتها على وجه اشرف كالنوى المزروع الذي لا يصير نخلاً مثمراً الا بعد افساد جثتها وكذلك البُر اذا اردنا ان نجعله زيادة في اجسامنا يحتاج ان يطحن ويعجن ويخبز ويؤكل فيغيّر تغييرات كثيرة هي فساد لها في الظاهر وكذلك البذر اذا القي في الارض يعده من لا يتصور مآله وحاله فساداً فالنفس تحب البقاء في هذه الدار اذا كانت قذرة راضية بالاعراض الدنيوية رضا الجُعَل بالحُش او جاهلة بمآلها في المآل .

الباب الثالث والثلاثون

في فضيلة الانسان اذا شرف على الملائكة

قد تقدم ان الناس ضربان ضرب لم يحظ من الانسانية

Digitized by Google

الا بالصورة التخطيطية من انتصاب القامة وعرض الظفر والقوة على الضحك ولغو من النطق يجري مجرى المكاء والتصدية وهو دون البهائم . وضرب هو الانسان وهو المعنيّ بما خلق لاجله فمن كان كذلك فله حالتان احداهما حالته وهو في الدنيا ولم يقتحم العقبة ويفك الرقبة بل هو صريع جوعة واسير شبعة تنتنه العرقة وتؤلمه البقة وتقتله الشرقة ولما يقض ما امره فهو ما دام في دنياه لا يحكم له بانه افضل من الملائكة على الاطلاق . والحالة الثانية قد اقتحم العقبة وفك الرقبة بعد ما قضى ما امره فصار من الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون بل قد جعل في مقعد صدق عند مليك مقتدر ذا حياة بلا ممات وغنى بلا فقر وعز بلا ذل وعلم بلا جهل وقد قامت الملائكة تخدمه كما قال تعالى : (والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار) فحينئذ من جعل له هذه المنزلة فهو افضل من كثير من الملائكة اعاننا الله على بلوغ هذه المنزلة وجعلنا من المترشحين لها برحمته انه على ما يشاء قدير

فهذا آخر ما قصدت من بيان تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين نفعني الله به ومن نظر فيه برحمته انه علي ما يشاء قدير والحمد لله وصلواته علي خير خلقه محمد وآله الطيبين الطاهرين

Digitized by Google

Digitized by Google

Digitized by Google

VETUS & NOVUM TESTAMENTUM
DEI SUB NUMINE VIGET
PRINCETON
UNIVERSITY
LIBRARY

Digitized by Google

32101 073254797

Digitized by Google